الأرقش والغجرية

رواية



حنا مينة

دار الآداب

حنا مينه

الأرقش والغجرية

رواية

دار الآداب - بيروت

الأرقش والغجرية

حنا مينه/روائيّ سوريّ
الطبعة الأولى عام 2006

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 11-4123
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

ـ ١ ـ

عند الغروب أقبل بعض الصيّادين إلى النبع، ليشربوا من مائه العذب، ويرتاحوا قليلاً من مطاردة الذئب الأسود، الذي غدا وهمًا وحقيقة، وكاد أكثرهم يكفر بهذه الثنائيّة التي يتمسّك بها الحكيم بشير، دون تحديد لما هو وهم، وما هو حقيقة، كي يعرف الصيّادون ماذا يطاردون، وإلى متى هذه المطاردة الغريبة!؟

وقد سُرّ الأرقش بوصول الصيّادين إلى النبع، وفرحوا هم برؤية الأرقش، الذي سمعوا به دون أن يروه، آملين بإجراء حديث صريح معه، يخرجهم من العتمة العبثيّة التي يتخبّطون فيها، كذلك وصل الطبيب ياسر وميلاد، وتخلّف نافع الداري وفدوى، وفكّر الأرقش: «أنا إنسان أيضًا، وأتصرّف كإنسان، ومن الطبيعي أن أحبّ، إلاّ أنّ التي أحبّها ليست رئيفة ولا فدوى، إنّها حلم، يظلّ في المبتغى يراود، وهذا جيّد، فمن لا يحلم ينتهي. وحلمي في القضاء على القلاع حلم طائش، رهن بالمستقبل، والمستقبل أبعد من مدى الظنّ، والقضاء على الذئب الأسود، على مثل هذه المسافة أيضًا، واليوم الذي يملّ به الصيّادون من مطاردته قريب، فماذا عليّ أن أفعل؟»

قام الطبيب ياسر بما عليه، غسل الخدوش التي على جسم الأرقش، نظّفها جيّدًا، دهنها بالمرهم المتوفّر لديه، أعطاه مضادًّا للالتهاب، قال له:

ـ محاولة الاغتيال كانت حقيقيّة إذن؟

قال الأرقش:

ـ هي كما تقول، ولولا وجود الحكيم معي، لكنت الآن في عداد الأموات.

قال الطبيب ياسر:

ـ وستبقى حيًّا ميتًا، مادمت تطلب شيئًا يعتبر، الآن، في المستحيلات. أنت، يا صديقي، تريد الانتحار على يد غيرك، فهل تخاف أن تنتحر على يدك، كما يفعل الذين يئسوا من هذه الدنيا؟

قال الأرقش:

ـ ربّما نعم، ربّما لا.. تولّ أنت معالجة هذه الخدوش، ودع تحليلاتك النفسيّة جانبًا، لأنّها، في مثل وضعي، تضرّ ولا تنفع.. ميلاد يقول إنّ الذئاب السود تسرح وتمرح، في شوارع العاصمة والمدن أيضًا، وهذا يعني أنّ الأمور بلغت حدًّا من السوء رهيبًا، حتى ليمكن القول إنّ القضاء عليها يدعو إلى اليأس.. لكنّنا، ولو بقينا قلّة، علينا ألاّ نيأس، ولن نيأس، أمّا الانتحار فإنّ الحياة ممكنة، مادام موجودًا، ولن أفعل كما فعل المتنبّي، فانتحر على يديّ فاتك أسدي، مهما بلغت المصاعب، واشتدّت الأزمات.. أنا لم أقل: «الخيل والليل والبيداء تعرفني/ والسيف والرّمح والقرطاس والقلم» بل قلت، كما قالت الهداهد: «للظلم يوم وللمظلوم يومان!».

قال الطبيب ياسر:

ـ ميلاد فتى شجاع، وهو الذي أصرّ على أن نأتي إليك، ودون كلمة راح يحمل بندقيّته ويتوغّل في الغابة، ماذا في الغابة سوى الموت؟

قال الأرقش حدبًا:

ـ فيها الحياة أيضًا.

ـ وفيها الكذّابون!

ـ وفيها الصادقون.

قال الطبيب ياسر وهو يضع صرّة كبيرة أمام الأرقش:

ـ جئناك بما تيسّر من طعام.. كيف يتدبّر الصيّادون أمورهم؟

ـ شكرًا على الطعام يا طبيب.. الغابة كريمة، والصيّادون يعيشون على كرمها، وعلى الطرائد التي يصطادونها وهي كثيرة، وكذلك على الطعام الذي يوضع ليلاً عند النبع.. الشعب معنا، والشعب يقدّر ما نفعل لأجله، فيُجزي على الجميل جميلاً.. هناك من يأتي بالطعام إلى النبع، دون أن يدعنا نعرف مَن هو، ودون أن نصرّ نحن على هذه المعرفة، والقاعدة المثلى، بالنسبة للمناضلين، هي التغلغل بين الناس، كلّما أشكلت عليهم الأمور، واحتاجوا إلى حلّ لهذه، أو تلك، من القضايا.. أرجوك يا ياسر، أن تداوي هذا الجريح الذي ينزف كتفه، بفعل رصاصة من بندقيّة قمْطرة.. إنّه خائن، لكنّه جريح، وهذا الخائن متّهم حتى الآن، وكل متّهم بريء حتى تثبت إدانته، لذلك علينا ألاّ نتعجّل بالحكم.

فتل الصيّادون من لحاء بعض الأغصان أمراسًا، قيّدوا بها

الشادوف ودغمش إلى شجرتي صنوبر، وارتعدت رئيفة من تصوّر مصير مماثل، إلاّ أنّ الحكيم قال لها:

ـ اطمإنّي!

قالت:

ـ أنا لم أفعل شيئًا.

ـ أعرف هذا.

ـ ولن تنتقم لأنّني أسقطتك في ماء النبع.

ـ لو أردت الانتقام لانتقمت بعد سقوطي.

ـ إنّني أخاف هذه التي اسمها قمْطرة.

ـ لا تخافي أحدًا.

ـ هل هذا لأنّك تحبّني يا حكيم؟

فكّر الحكيم بشير قليلاً، مسّد شعر رئيفة بأنامل حنون، داعب وجنتيها، رفع وجهها إليه، ولم يقل شيئًا.. كان يريد أن يحميها، أن يردّ الأذى عنها، أن يجعلها غير مبالية بما ترزّه عينا قمْطرة من نظرات حقود، لأنّه، في خبث اللاشعور، كان لايزال يشتهيها، وفهمت ذلك رئيفة بحساسيّة الأنثى فقالت:

ـ هل تتزوّجني يا حكيم؟

ـ والأرقش؟

ـ كنت أحبّ الأرقش، أمّا الآن فإنّني أحبّك أنت.

ـ ودغمش؟

ـ آه! لا تذكّرني!

ـ تخافينه وهو مربوط إلى صنوبرة؟

ـ لا أخافه. ولكن.. آه يا حكيم! آه يا حكيم! ماذا فعلت بنفسي؟

ـ هل فعلت ما يسيء إلى نفسك؟

ـ أردت الانتقام، فأضعت نفسي!

ـ الانتقام منّي!؟

ـ ومن سواك.

قال الحكيم بشير:

ـ إذا كان الأمر يتعلّق بي، فقد عفوت عنك، فقد كنتُ المعتدي، وكنتِ في حالة دفاع عن النفس، والأمر، بعد هذا، بسيط جدًّا، أقوم فألقيك في حوض النبع، وتكون واحدة بواحدة!

أطرقت رئيفة دون أن تجيب، كانت تخاف أن تجيب، أن تقول ما في سريرتها المعذّبة.. الأرقش خَطِر، داهية، لم يربطها إلى صنوبرة كما فعل بدغمش، لم يكترث بها، وعدم الاكتراث هذا أوجعها، فكّرت: «أنا في نظره لا شيء، ولو ربطني لكنت شيئًا، الأفضل أن أكون شيئًا وأُربط، أن أكون موضع اهتمامه وأموت، إنّه يحتقرني، يذبحني باحتقاره، وزاد على الاحتقار أنّه أعاد لي بندقيّتي القديمة، وفيها مشط من الرصاص، لماذا أعاد لي بندقيّتي وفيها مشط من الرصاص؟ كي أقتله؟ لا! كي يهزأ بي لأنّني الضعيفة وهو القوي، كي يجعلني أفهم أنّ كيدي، كامرأة، لا يعنيه في شيء، وأنّني غير قادرة على قتله، وأنّ قمْطرة أكثر

إيثارًا منّي بالنسبة إليه. . لكنّني، أنا رئيفة، سأقتله، سأقتله ولو كان جزاء القتل الإعدام! هذا الغبي، هذا الأرقش المتغطرس، سيكون عبرة لغيره، لمن تحبّهم المرأة، فيديرون ظهرهم للمرأة».

وقفت رئيفة، تناولت بندقيّتها، سدّدت إلى قلب الأرقش، أحكمت التسديد، أطلقت النار، لكنّ الرصاصة أصابت غصن الصنوبرة، بفعل يد رفعت سبطانة البندقيّة إلى الأعلى، وكانت هذه يد قمْطرة، التي قهقهت وهي تقول:

ـ تجربة واحدة تكفي! هاتي البندقيّة حتى لا تتكرّر التجربة، وعلى نفسك هذه المرّة!

أضافت قمْطرة بعد أن انتزعت البندقيّة من رئيفة:

ـ أنت صغيرة بعد، صغيرة وجميلة، وهذا اعتراف، من امرأة مثلي، ثمين جدًّا، لو كنت على دراية كافية به. . عودي إلى مكانك إلى جانب الحكيم بشير، وإذا كان الجلوس إلى جانبه لا يروق لك، ففي الغابة متّسع للهرب. . لكنّك غير مذنبة، ولهذا لن تهربي، ولماذا لن تهربي؟ أنا أقول لك: لأنّ الأرقش هنا! الأرقش، إذا كانت فراستي جيّدة، روحك. ولا سبيل إلى الهرب من الروح. . تبكين؟ لا! لا تبكي، تعالي إليّ أشمّ رائحة الأرقش فيكِ.

استسلمت رئيفة إلى ذراعي قمْطرة المفتوحتين، كانت رئيفة تخافها. . كانت ترى في نظراتها المسدّدة إليها، مثاقب تخترق جلدها وتحفر في اللّحم. إنّها رهيبة؛ وهذا الانطباع الذي أخذته رئيفة عن قمْطرة، كان انطباع أنثى تغوص عميقًا، في أحاسيس

أنثى تقابلها، وتستشعر، أمامها، بحرج في التصرّف، غير واثقة من لطفها وغير ناكرة لهذا اللّطف، قائلة في سرّها: «قمْطرة لا تعرف، أغلب الظنّ، ما كنت أبيّته للأرقش، وأنا، حيالها، أرنب أمام ذئبة؛ ولو فكّرت بالهرب، كما تدعوني، لوجدت الفضاء «باعًا أو ذراعًا» لأنّها، كما قال النابغة «اللّيل الذي هو مدركي، وإن خلت أنّ المنتأى عنه واسع». . وعليّ، تأسيسًا على ذلك، أن أجاملها، أن أتظاهر أنّني مطمئنّة إليها، لكنّني لا أعرف تمامًا، وقد لا أعرف أبدًا، نوع العلاقة التي تربطها بالأرقش».

قالت قمْطرة وقد استشفّت ما يجول بخاطر رئيفة:

ـ هناك سؤال يا رئيفة، يتبدّى على شفتيك، وأنت تجاهدين لكي لا يخرج منهما، فما هو؟ كوني صريحة معي، قولي الذي في قلبك.

قالت رئيفة:

ـ ليس هناك شيء في قلبي.

ـ أنت لا تزالين خائفة منّي. . اذهبي، الآن، إلى الحكيم بشير، ودعيني أقم بواجبي!

ذهبت رئيفة إلى الحكيم بشير، جلست إلى جانبه دون أن ترفع ناظريها إلى وجهه. كانت تكابد وطأة ذنبها، وكانت خجلة من محاولتها إطلاق النار على الأرقش، ولم تجرؤ على الكلام، ونسيت، لشدّة ارتباكها، أنّها سألت الحكيم: «هل تتزوّجني؟» وأنّه لم يردّ على سؤالها، مع أنّها على يقين أنّه يشتهيها. وما تريد معرفته، بعد كلّ هذا العذاب النفسي: «مَن الأقوى: الحكيم بشير

أم الأرقش؟ إذا كان الحكيم بشير فستأخذه الرأفة بها، وإذا كان الأرقش، بجبروته، فإنّ مصيرها قد تحدّد: الموت! ولن تأخذه شفقة عليها، بعد أن أطلقت النار عليه.

قال لها الحكيم بشير:

ـ كنت سعيدًا عندما رأيتك في ألفة مع قمْطرة.. وكنت مستغربًا هذه الألفة بعد إطلاقك النار على الأرقش.. قمْطرة هذه تفدي الأرقش بروحها، وهي، لديه، أغلى من كل الرجال الذين معه.

ـ إلى هذا الحدّ؟

ـ الظاهر، يا رئيفة، إلى أبعد من هذا الحدّ.

ـ هل هذا لأنّها تحبّه؟

ـ لا أدري!

ـ وهل هذا لأنّه يحبّها؟

ـ لا أدري أيضًا!

ـ والكلمة النافذة هنا، لكَ أم للأرقش؟

«خبث الأنثى، رئيفة من سلالة حوّاء، ولأنّها من هذه السلالة، فإنّ الأنثى فيها هي التي تتكلّم.. سؤال غير متوقّع، يتجلّى في التفّاحة الأولى.. سألتني إذا ما كنت أقبل أن أتزوّجها.. لم أجب على السؤال. طرحته، الآن، بأسلوب آخر، فيه مكر ودهاء، وفيه، أيضًا، محاولة للإيقاع بيني وبين الأرقش، الأقوى فينا، صاحب الأمر والنهي، سيكون المفضّل لديها..

تحبّ الأرقش وتعرض عليّ الزواج، لو قلت: «أنا هنا صاحب الكلمة النافذة!» لكرّرت العرض، أمّا إذا قلت إنّ الأرقش هو صاحب هذه الكلمة، فإنّها ستتملّقه، ولن تعدم الوسيلة لذلك. حقًّا «إنّ كيدهنّ لعظيم» وهذا الكيد يتجلّى بقمْطرة بشكل واضح».

سألها الحكيم بشير:

ـ هل يعنيك هذا الأمر؟

أجابت:

ـ أبدًا!

«تكذب»

ـ أنا أرى أنّه يعنيك.

ـ لو كان يعنيني لسألت قمْطرة عنه.

«تكذب أيضًا».

ـ وما هو تقديرك أنت؟

ـ أنا تعبة جدًّا يا حكيم، وكلّ ما أريده أن أضع رأسي على ركبتك وأنام.

«هل هي تعبة حقًّا؟ قد يكون ذلك كذلك، لكن لماذا تضع رأسها على ركبتي أنا بالذّات؟ ولماذا لا تضعه على ذراعها فوق هذه الصخرة؟ أو لماذا لا تفترش الأرض، كما نفعل جميعًا؟ العشب، هنا، سميك وممهّد، وصالح لراحة الجسد المتعب، فهل فاتها ذلك؟ محال! الصيّادون جميعًا يفترشون الأرض، وهي

تفعل مثلهم، فعلام الرغبة في وضع رأسها على فخذي؟ وما السبب في هذا الاختيار الآن بالذّات؟ خائفة وتريد الاحتماء بي؟ وممّ تخاف؟ ارتكبت ذنبًا لا أدري ما هو؟ ترغب في إثارة اشتهائي؟ نعم! هذا هو: الأنثى تتحرّش بالذكر، غير مبالية بكلّ الموجودين هنا، وفي هذه الحالة ماذا عليّ أن أفعل؟ أوافق! أرفض! وأيّهما الأصحّ؟ إنّ بي ميلاً إلى الموافقة، إلى الاستمتاع بملامسة عنقها فخذي، وإلى تخلّل أصابعي بشعرها الذي طالما أغراني وهو ينسدل على كتفيها...».

قال لها الحكيم بشير:

ـ كما تشائين يا رئيفة، أنت في غاية التعب، وركبتي مريحة على ما أظنّ.

وضعت، بغير كلام، رأسها على ركبته، وضعته أبعد قليلاً من الركبة، نحو الجذع، فأحسّ بحرارة جسد تسري في أوصاله، وبصورة تلقائيّة، ألقت بذراعها على فخذه، قريبًا من الحوض، تاركة لشعرها الطويل، الخرنوبي، أن يتهدّل، بعفويّة على جانبي رأسها، وراحت تئنّ، تتنهّد، زافرة، شاهقة، كأنّما تطمر هامها على وسادة، في غرفة نومها التي هجرتها منذ زمن بعيد.. وبعد هنيهة، بصوت أقرب إلى الفحيح، سألته بغنج أنثى في حضن ذكر:

ـ هل أضايقك يا حكيم؟

أجابها الحكيم بنبرة اهتياج أقرب إلى الهمس:

ـ أبدًا يا رئيفة، يا صغيرتي المسكينة!

ـ أخاف أن أضايقك، فأنا أضغط من شدّة التعب.

ـ اضغطي ما دام ذلك يريحك..

ـ أشعر كأنّني أنام على ركبة أمّي.. آه ما أشهى أن تضع البنت رأسها على ركبة أمّها.. وأن تطوّقها بذراعها! أرجوك أن تغفر لي إذا فعلت ذلك، كي أستريح تمامًا.

قال الحكيم:

ـ خذي حرّيّتك، تصرّفي كما يحلو لك، استرخي تمامًا، كفّي عن الكلام.

ـ أنا أتصرّف على سجيّتي، أعانق ركبتك كما أعانق ركبة أمّي، لكنّ النوم يجفوني، فماذا أفعل لأنام قليلاً؟

قال وراحته تمسّد شعرها:

ـ اغمضي عينيك، عدّي إلى المئة..

راحت رئيفة تعدّ، بصوت يكاد يُسمع، راح الحكيم بشير يعدّ معها، أخذت تضغط برأسها، تطوّق ما فوق الركبة بذراعها، بدأ الحكيم يرتعش، مستشعرًا لذاذة غير معتادة، متمنّيًا أن يدوم ذلك، أن يكون جريئًا فيضع كفّه على ذراعها، أن يسألها «هل ترتاحين إليّ يا رئيفة؟ هل تطمئنّين وأنت مسترخية على هذا النحو؟ ماذا بكِ!؟ ممَّ تشكين؟ ولماذا الخوف، إذا ما كنت خائفة؟ بوسعي، صدّقيني، أن أحميك، أن أدفع كل أذى عنك.. كوني واثقة من ذلك، اغمضي عينيك، دعيني أغمض عيني، ولنبحر معًا في قارب الهناءة، وإلى بعيد جدًا.

قالت رئيفة:

ـ لن نستطيع ذلك يا حكيم، لن نستطيع! لا تنسَ أنّنا امرأة ورجل!

توقّع الحكيم أن تكمل.. أن تسأله: «هل تتزوّجني؟» لو سألته لقال لها: «نعم، وقبل أن تغرب الشمس، عندئذ نكون رجلاً وامرأة، بشرع الله، نتعانق كيف نشاء، ونذهب إلى أعماق الغابة دون عذول أو رقيب..»، لكن رئيفة سألته بغتة:

ـ وإذا لم نتزوّج، هل تعانقني ولا تخاف الأرقش؟

ـ وأنتِ!! تحبّينني أم تحبّين الأرقش؟

ـ أحبّك أنت، وأخاف الأرقش بوقت واحد.. نسيت أنّني أطلقت عليه النار؟

ـ وبعد إطلاق النار، هل أزعجك في شيء؟ هل قيّدك؟ هل وضع عليك حراسة ما؟ الغابة أمامك، اهربي إذا شئت.

ـ وهل تهرب معي؟

ـ لا.. طبعًا، هذا مستحيل!

ـ ولأنّه مستحيل، فإنّ هناك سببًا لاستحالته، هو خوفك من الأرقش.

ـ وإذا قتلت الأرقش؟

ـ نصبح، أنت وأنا، أحرارًا.

ـ والذئب الأسود؟

ـ الأرقش هو الذئب الأسود.

ـ لا! الأرقش ليس الذئب الأسود، ولن أقتله، أو أسمح لأحد بأن يمسّ شعرة في رأسه.

ـ إذن أنت هنا لا شيء.. الأرقش هو كل شيء.

رازها الحكيم بتأنٍّ وقال:

ـ إلى أين تريدين الوصول؟

جلست رئيفة وقالت بحقد:

ـ إلى قتلك وقتل الأرقش!

ـ أفعى!

ـ لو ذقت تفّاحة الأفعى!

قالت قمْطرة من وراء ظهر الحكيم:

ـ سيذوقها يا رئيفة، فلا تتعجّلي.

قالت رئيفة بغضب:

ـ كنتِ تتلصّصين علينا إذن!؟

قالت قمْطرة دون اكتراث:

ـ أنا لا أتلصّص، لكنّني أعرف.. عودي إلى الاسترخاء على ركبة الحكيم، أو اهربي إذا كان الهرب يطيب لك.. ولن يعترضك أحد. أضمن ألاّ يعترضك أحد.. إنّني، يا رئيفة، لستُ عدوًّا، وسأعمل كل ما في وسعي للتخفيف عنك.. انظري هناك، إلى اليمين، تجدي ما يشبه العرزال، هذا لك، ولي إذا كنت لا أضايقك.. لكنّك، في الهاجس الذي يدور في رأسك، تذهبين بعيدًا، تقولين إنّني أقاسمك العرزال، لا لتسليتك، أو التخفيف عنك، وإنّما كي أضعكِ تحت حراستي.. هذا، في مثل

وضعك، وارد تمامًا، ولو كنت في مثل ورطتك، لفكّرت تفكيرك نفسه... المحكوم بالإعدام يخفّ من جرّ الحبل.

هتفت رئيفة بخوف نابع من أعماقها:

ـ عن أيّ إعدام تتحدّثين!؟

ـ خفتِ؟ إنّه مَثَل لا أكثر، مَثَلٌ كسائر الأمثال، انزلق به لساني دون إرادة، دون وعي.. وهو لا يخصّك أبدًا.

صاحت رئيفة:

ـ بل يخصّني، يخصّني وحدي، ولم ينزلق به لسانك، أنا أعرف مصيري، أعرفه، هيّا اعدموني، أريحوني من عذابي.. لماذا تؤجّلون إعدامي؟ إلى متى.. إلى متى!؟

قالت ذلك وغرقت بالدمع. بكت بحرقة، بخوف هزّ كيانها هزًّا، تصوّرت نفسها تقف موقف الشادوف، والرصاصة تخترق قلبها، والأرقش يسحب مسدّسه، مصوّبًا إلى صدغها، وعلى هذا الصدغ يطلق طلقة الرّحمة، فانتابها الذعر، رجّت كيانها نوبة هستيريّة، ارتبكت معها قمْطرة، التاشت.. لم تعد قادرة على معالجة الموقف، تركت ذلك للحكيم بشير، الذي رفعها عن الأرض، أوقفها، أخذها بين ذراعيه، مشيرًا بيده إلى الأرقش، كي يأتي ويهدّئ من روعها، غير أنّ الأرقش لم يأتِ، كان قاسيًا ولم يأتِ، تركها وشأنها، أشاح بوجهه عنها، كأنّه لا يعرفها، وكأنّها ليست المرأة التي أحبّته، وبسبب خيبتها في هذا الحبّ، فعلت كل الذي فعلته، وعندئذ أطلق الحكيم كلمته التي ندم عليها، نظر إليه وقال:

ـ وغد..!

ـ ٢ ـ

طنّت الكلمة في أذن الأرقش فلم يأبه لها «عجوزنا.. فكّر، طيّب القلب، لذلك لا يصلح إلاّ لطيبة القلب، وماذا تعني طيبة القلب؟ الإشفاق الذي في غير محلّه أحيانًا.. إنّه حكيم، وليس من يشكّ في حكمته، أو في خروجه، قبل الجميع، لاصطياد الذئب الأسود، وهذا اجتراء كبير، لا على الذئاب وحدها، وإنّما، في المآل، على القلاع التي تطلقها. لكنّه يفعل ذلك، دون أن يعي ذلك، وهذا لا ضير فيه، ما دام وجوده في أيّة غابة، يؤدّي إلى استنفار الصيّادين في هذه الغابة، وهذا كسب جيّد. والغابات الاثنتان والعشرون، مَدينة له في استنهاض الهمم، لمطاردة الذئاب السود فيها، ولتقديم النصح لذوي الهمم هؤلاء، الذين لولا وجوده ما كانوا، وما طاردوا، ولظلّوا خاملين في بيوتهم، مستريحين، غير مكترثين، وغير عارفين أن أرغفة خبزهم اليومي تأكلها هذه الذئاب.. ما بعد هذا خطّ لا يتعدّاه الحكيم، والعدالة الاجتماعيّة قبل هذا الخطّ لا بعده، ورغم تفهّمه لها، وحماسته أحيانًا لأجلها، فإنّه يراها بعيدة المنال، وهي بعيدة المنال فعلاً، لكنّها مسحوبة على الزمن الآتي، والحكيم بشير يحصر اهتمامه بالزمن الحاضر، وهنا عيب حكمته كلّها، هنا سلبيّتها، هنا قصورها عن رؤية ما هو أبعد من الراهن، وعن استشراف المستقبل، الذي علينا جميعًا أن نضع أمنياتنا فيه.. ثم

إنّ الحكيم رجل، والحكمة لا تخصي الرجولة، ورئيفة امرأة، وتلعب دور المرأة بإتقان، مستثيرة شهوة الحكيم، متأبّية على هذه الشهوة بعد استثارتها، تاركة صاحبها متأرجحًا في فضاء، يظنّ أنّه وصل إلى مبتغاه في لحظة، ويجد نفسه بعيدًا عن هذا المبتغى في لحظة تالية، يعيش الرجوة في يوم، والخيبة في يوم آخر، وهكذا يكون أحلى الهوى، ويكون أيضًا مرّ الهوى، بانتظار الصحوة التي تجعله يقطع مع هذا أو ذاك. . إنّني أحترم الحكمة الشريفة، أجافي الحكمة المبتذلة، ألعنها، أنبذها، أجنف عنها، إلاّ أنّ حكمة حكيمنا، مع كل ما فيها من شرف، من أباء، فإنّها سهلة الانقياد. . ومجرّد أن وضعت رئيفة رأسها على ركبته تراخى، انقاد، اغتلم، انقلبت حكمته، تبذّلت، باخت، وبكلمة: أضاعت نفسها. لذلك رماني بما أنا بريء منه، عاد إلى اتهامي بالنمردة، قال عنّي: وغد!».

نده الأرقش الطبيب ياسر، أوعز له أن يذهب بسرعة إلى رئيفة، أن يقدّم لها العلاج اللازم، أن يزرقها بإبرة مسكّنة، مهدّئة، وإذا تطلّب الأمر حقنة منوّمة، وبذلك يساعدها على الخلاص من الهستيريا التي هي فيها!

حاول الحكيم بشير أن يبعث الطمأنينة في نفس رئيفة، أن يقنعها أنّ ما قالته قمْطرة ليس سوى مثل يقال، وأنّه ليس هناك حبل ولا إعدام، وأنّه يصدقها القول ولا يكذب عليها، إلاّ أنّ رئيفة، التي لا تزال ترى في قمْطرة عدوّة لها، ترسّخ في ذهنها، على نحو هستيري، أنّها ستُعدم، وأنّ إعدامها سيكون شنقًا، وهي ترتعد خوفًا من الشنق. . فالموت، بإطلاق الرصاص عليها،

أسهل، رغم أنّ الأرقش، قبل أن تموت نهائيًّا، سيضع فوهة مسدّسه في صدغها ويطلق عليها رصاصة الرحمة.

وتعقّد الموقف أكثر، عندما جاء الطبيب ياسر، ودون أيّ كلمة أخرج السرنك، وكسر إبرة أفرغ محتواها فيه، ولمّا اقترب من رئيفة اهتاجت أكثر، ظنًّا منها أنّها ستعدم بإبرة سامّة، وبدفاع غريزي عن الحياة، ضربت السرنك بكلّ قوّتها فانقذف بعيدًا، وراحت تتمرّغ بالتراب حول النبع وهي تصيح: «لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت!» والطبيب ياسر، قليل الخبرة في معالجة الاهتياجات النفسيّة، يقف متصالب اليدين، لا يدري ما يفعل، بينما الصيّادون الذين وفدوا من بعض الغابات المجاورة، يتراكضون، يتجمّعون، يتحلّقون حول النبع، يأخذهم دهش غريب ممّا يرون، والحكيم بشير يحتضن رئيفة، محاولاً تهدئتها دون جدوى، يقول لها بإشفاق أبوي:

ـ هذا دواء وليس بسمّ، أقسم أنّه دواء لتهدئة أعصابك قليلاً.

ورئيفة تتابع صياحها:

ـ لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت!

إنّ نهاية الإنسان المحتومة بالموت نهايةٌ فاجعة، وحين يأتي الموت والإنسان لم يسأم من الحياة بعد، تنقلب الفاجعة إلى أشدّ منها، إلى ذعر حقيقيّ، وتسفّ الرّيح رباطة الجأش كما تسفّ الأوراق اليابسة، والمذنب، المعذّب بذنبه داخليًّا، يرى شبح الموت ماثلاً أمامه، مفسّرًا كلّ حركة من حوله تفسيرًا مرعبًا، يفقد معه طاقته على الاحتمال، ظنًّا منه أنّ لحظة الإعدام دنت، لذلك يحرصون، في السجون، على التكتّم، على منع تسرّب النبأ

إلى الذي سيعدم في اليوم التالي، كيلا يمرّ باللّحظات الرهيبة، الفاصلة بين سماعه خبر الإعدام، وهنيهة الإعدام ذاتها، وتأتي صورة الجلاّد بوجهه الجهم، وشاربيه الكبيرين، ويديه الجافّتين، وأصابعه الطويلة المتمرّسة بوضع الحبل في عنق المحكوم، وتركيز عقدتها في مؤخّرة الرّأس، دون اختلاج أيّة عضلة في وجهه، أو جسده كلّه، تأتي هذه الصورة الكريهة، لتزيد في عذاب من سينفّذ فيه حكم الإعدام، الذي لا يعرف النوم أو الهدوء، أو الكفّ عن الإصغاء إلى كل نأمة خارج زنزانته، وتمرّ ذكريات حياته شريطًا مصوّرًا، كالحًا أمام عينيه، ولا يتوقّف عذاب الموت إلاّ بالموت نفسه!

رئيفة التي تعرف أنّها مذنبة، وأنّ عقاب هذا الذنب الإعدام، كانت متوجّسة من كل حركة تدنيها من الإعدام، والكأس المرّ الذي عليها أن تتجرّعه، يتراءى، في وهم الخيال، إنّه قريب جدًّا من شفتيها، وقد جهدت لتحييد هذا الشعور المبهظ، إلاّ أنّها فشلت، فالذاكرة الموضوعة على آلة العرض السينمائي، تعمل تلقائيًّا، يكرّ شريطها ويكرّ، ومع الذكريات التي في هذا الشريط، هناك الأسئلة الرديفة، المتتالية، المتوالدة بفعل الذكريات، ومحورها: متى؟ كيف؟ بأيّة طريقة؟ وهل الإعدام يأتي بالموت فورًا، أم أنّ الموت لا يكون فورًا بعد الإعدام؟ وهل حدث أن مات المحكوم بالإعدام قبل إعدامه؟ وهل الموت صعب إلى الدرجة التي تبعث الرعب في أوصال المحتضر؟ ولماذا يطول الاحتضار حتى في الموت الطبيعي؟ ولماذا يشدّ الجلاّد رجلي المشنوق بقوّة إلى تحت، كي تخرج روحه التي تتأخّر في الخروج؟ وبعد خروج الروح هناك القبر، وظلام القبر، ودود

القبر، والأحاسيس التي تنتاب المقبور.. أم أنّ المقبور لا يحسّ بشيء؟ شيكسبير قال: «الموت نوم، ثم لا شيء»! فهل الموت نوم كما قال؟ وهذا الذي قاله قبل أن يموت، هل ظلّ هو نفسه بعد موته؟ من يدري؟.. أحد لا يدري، ما دام أحد بعد الموت، لم يعد إلينا ليخبرنا ما هو الموت! وحتى عندما كانت رئيفة تضع رأسها على ركبة الحكيم، وتتشهّى، هي الأنثى، الرغبة في الذكر عند الحكيم، لم تكن رغبتها هذه صافية، خالصة من اختلاطات الهواجس، كانت تتناسى وتتذكّر في آن، وكلّما حاولت الظفر بالنسيان التامّ، تجد نفسها في تذكّر تامّ، وهذا ما أدّى بها إلى الدخول، برغمها، في الحالة التي لا مفرّ منها: حالة من يعرف أنّه سيعدم، ويعاني مشاعر الذي سيعدم، بشكل تامّ حينًا وبشكل تقريبي حينًا، حتى وصلت إلى النقطة التي انفجرت فيها أعصابها، فانهارت نفسيًّا، وراحت تصرخ من أعماقها:

ـ لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت..

وكان الموت الذي في داخلها يرى ويسمع ويعجب، من ضعف الإنسان وقوّته المتلازمين! والذين كانوا حولها، يرون ويسمعون، حكموا بأنّ رئيفة جنّت، وأنّ جنونها هذا لا شفاء منه، حتى لو أدخلت مشفى المجانين، وأنّ الطبيب ياسر طبيب أمراض داخليّة، ولا علاقة له بالأمراض النفسيّة، والخطأ الفادح الذي ارتكبه، أنّه لم يعطها بدءًا بعض الحبوب المهدّئة، وبعد ذلك يحقنها بإبرة مخدّرة، إبرة مورفين مثلاً، حتى تهدأ وتنام، أليس كذلك يا حكيم؟

قال الحكيم بشير:

ـ قد يكون الطبيب ياسر أخطأ، لأنّه ليس طبيبًا في الأمراض العصبيّة أو النفسيّة! إنّما مشكلة رئيفة أعقد ممّا تظنّون. . إنّها خائفة، والخوف أساس في كلّ المشاكل التي من هذا النوع، وفي نوبة الهياج التي ترجّ كيانها، لن تتقبّل، حتى لو ربطت بالحبال، أن تحقن بأيّما إبرة. . إنّها غير مجنونة، صدّقوني. . إنّها غير مجنونة.

قال الصيّاد أكرم، الذي عانق الحكيم بشير، بعد طول فراق:

ـ أنا من رأيك يا حكيم. . رئيفة غير مجنونة، ومعالجتها على هذا الأساس خطأ!

قال صيّاد، من بين الصيّادين الذين تقاطروا على النبع:

ـ رئيفة ضحيّة جمالها!

قال صيّاد آخر:

ـ هل نفهم من هذا أنّ هناك من اعتدى على هذا الجمال؟

قال صيّاد ثالث:

ـ هناك مَن حاول. . ففشل؟

قال صيّاد آخر:

ـ ومن هو هذا اللئيم الذي حاول ففشل؟ إنّها زميلتنا في مطاردة الذئب الأسود، والذي حاول اغتصابها مجرم، ينبغي أن ينال جزاءه.

ـ ينال جزاءه على ماذا؟ الحق، كما أرى، على جمال رئيفة، لماذا هي جميلة؟

ـ تريد أن تقول إنّ الله جميل، يحبّ الجمال؟ الله، سبحانه وتعالى، خلق الجمال كما خلق القبح، وعباده أحرار في الموقف بينهما.. رئيفة جميلة، فهل من العدل أن تدفع ثمن جمالها لكلّ طامع فيه.

فجأة برزت فدوى ومعها نافع الدارمي. لقد جاءا كما الآخرين، للّقاء الذي سيعقد في إطار النبع، ودون سلام أو كلام مع الأرقش أو الحكيم، خرجت فدوى باتهام جديد، مصوّب كالسهم إلى قلب رئيفة، حين قال:

ـ لماذا كل هذا الجدل، الذي غايته إخفاء الحقيقة تحت غطاء من التشويش؟ رئيفة هذه فاجرة، وهي عشيقة دغمش، المجرم المربوط إلى شجرة الصنوبر، دون عقد نكاح شرعي.. إنّها زانية، وعلى المكشوف، وانهيار أعصابها سببه أنّ لعبتها السافلة قد انكشفت، وهي ليست مجنونة رغم تظاهرها بالجنون، وغايتها أن تستدرّ الشفقة عليها، لعلّها تنجو من العقاب الذي ينتظرها!

كانت دندنة، الصيّادة الجريئة في غابة غير بعيدة، قد جاءت كما غيرها، وتقحّمت الصفوف وجبينها العالي ينبض فيه شرش الغضب، إلاّ أنّها، كعادتها، كانت باردة الدم، صارمة، قادرة على التماسك، مصغية إلى فدوى دون مقاطعة، ودون أن تأبه لأحد، أو تعلّق على كلام أحد، في موضوع الجمال وجنايته، ولأنّها كانت، عند نفسها، من المليحات، فقد اعتبرت أنّ الموضوع يعنيها، لذلك بدأت الكلام حول هذه النقطة، فقالت بصوت ينمّ عن قوّة شخصيّتها:

ـ إنّني، يا زملائي وزميلاتي، صيّادة مثلكم، ولي سابقة

عليكم لأنّني من الأوائل في مطاردة الذئب الأسود، ولا أخفي عليكم أنّني، كبعضكم على الأقلّ، من الذين يعرفون أنّ القلاع هي مصدر هذا الذئب، وعليها، عندما يأتي الوقت، ينبغي أن يكون التصويب، وهذا ما سوف أفعله مع الآخرين. وقد سمعت، بانتباه كامل، كلّ ما قيل عن الجمال الأنثوي وجنايته على صاحبته، وذنب رئيفة أنّها جميلة، وأكثركم يرغب في تحميلها هذا الذنب، وهذا من العيب، هذا من الحسد، ومن اشتهاء رئيفة، والعجز عن إرواء ظمأ هذا الاشتهاء، ومن يتفحّص ضميره بصدق وأمانة يجد أنّ ما أقوله لا يجانب الصواب، وهذا ليس من العدل في شيء، وليس من الرجولة في شيء، وليس من شيمة الزمالة في شيء أيضًا!

أمّا النباح المسعور، الصادر عن هذه المسمّاة فدوى، فإنّه غير خليق بالردّ عليه، لأنّه كذب في كذب، وتعرفون أنّ العائبة تتهم أبدًا غيرها بالعيب، وفدوى هذه عائبة، ومن الطبيعي أن تتهم غيرها بالعيب، ورئيفة بريئة منه.. فدوى هذه عاشت زمنًا طويلاً وهي تزعم أنّها تحبّ الأرقش، وأنّ الأرقش يحبّها، إلاّ أنّها، بوقاحة بالغة، جاءت إلى هنا ومعها نافع الدّاري، الذي كانت، ولا تزال، تخون الأرقش معه، وقد حملت منه مرّتين، وأسقطت حملها مرّتين عند طبيب أعرفه في المدينة.. أمّا رئيفة فقد جنّ دغمش في هواها، ولم تسمح له، ولو لمرّة، أن يلامس جسدها، وغدًا، أمامكم جميعًا، سينكشف كل مستور، لأنّ كلّ شيء سيوضع في الضوء.. إنّني، هنا، قاتلة، أكرّر: قاتلة. ومن يضمر، حتى في سريرته، أن يلحق الأذى برئيفة، أو الحكيم بشير، أو الأرقش، أو أيّ من الزملاء الشرفاء، الذين نذروا

أنفسهم لقتل الذئب الأسود، فإنّني سأقتله بغير رحمة.. هل سمعتم ما أقول؟ إذن الحاضر يعلم الغائب، والسلام.

قالت فدوى:

ـ إنّني أحبّ الأرقش، وقد تفانيت في هذا الحبّ، لكنّ الأرقش يحبّ غيري، والتي يحبّها تحبّ غيره، والسبب واضح: الأرقش لا قلب له، أعطى قلبه لقضيّة يقول إنّها شريفة، وأنا أقول غير شريفة، لأنّها لا تخرج عن إطار القوّة، وبهذه القوّة يريد أن يغتصب الآخرين، وأنتم، كلّكم، تعرفون هؤلاء الآخرين، أي أسيادنا الذين يملكون القلاع، والذين بنوا قلاعهم بعرق جبينهم!

قال أكرم:

ـ نحن هنا من أنصار حرِّيَّة الرأي، وحق الاختلاف في الرأي، وفدوى قالت رأيها الذي يختلف عن رأينا، وهذا من حقّها!

صاحت دندنة:

ـ عن أيّ حقّ تتحدّث أنت؟

ـ عن الذي سمعتيه.

ـ هذا الحقّ يدخل في باب الخيانة.. فدوى هذه لم تخن الأرقش فقط، بل خانت القضيّة كلّها!

ـ أعرف هذا، وستحاسب فدوى عليه، لكنّ السؤال يبقى هو التالي: لولا حرِّيَّة الرأي، هل كانت فدوى تجاهر برأيها؟ طبعًا

لا، وهذا يدلّ على شيء آخر، أكثر خطورة، يتعلّق بالديموقراطيّة، ففي جوّ الديموقراطيّة وحدها يمكن أن نتبيّن الأبيض من الأسود، وأن نصفّق للأبيض، ونرفع الصوت ضدّ الأسود، ولو كانت الديموقراطيّة موجودة، في الغابات الاثنتين والعشرين، لما كانت القلاع وذئابها السود في هذه الغابات! لذلك أعتبر الديموقراطيّة هي الأساس في قضيّتنا، وما تبقّى فروع لها.. فنحن نكافح لأجل هدف محدّد، إذا لم نحقّقه ذهب كفاحنا سدى، إنّما علينا ألاّ نذهب بعيدًا مع ريح الأوهام، لأنّ هذا الهدف دونه صعاب، ينبغي أن نحسب حسابها جيّدًا، ما دام السلاح غير متكافئ، بيننا وبين الذين نعمل لانتزاع حقّنا منهم، وها هي الوقائع أمامنا، ولا بدّ من الإفادة من دروسها.. فدوى كاذبة في حبّها للأرقش، والأرقش يعرف ذلك، ونافع الداري كان أمينًا في مطاردة الذئب الأسود، لكنّه خان الأمانة لأجل المرأة، وهذه المرأة خانت نافع الداري لأجل المال، وهكذا تكون القلاع قد اخترقت صفوفنا، وصار لها بيننا عيون وآذان، وكذلك رجال يعملون لمصلحتها، وهم مزوّدون بالسلاح والمال، ونكون نحن أمام واقع جديد، خطير، لم ننتبه إليه لغفلتنا.

قال نافع الداري:

ـ أعترف أنّني خنت الأرقش مع فدوى، لكنّني لست شريكًا لها في خيانة القضيّة التي وهبت لها حياتي.. إنّني، من هذه اللحظة أتبرّأ منها.. أنا معكم في محاسبتها وإدانتها!

قالت دندنة:

ـ وتريدنا أن نصدّق يا نافع، أنّك لم تلحظ خيانتها، وأنت تعيش معها وتلازمها مثل ظلّها؟

قال نافع:

ـ لاحظت أنّها تغيب أحيانًا، ورأيتها مرّة واحدة تتحدّث مع الشادوف، الذي زعمت أنّه قريبها، وكلّما راودني الشكّ في أمرها، عصبت عينيّ بمفاتنها، فإذا كان هناك ذنب اقترفته، فهذا الذنب يعود إلى دناءة نفسي، فيما يتعلّق بالمرأة.. أنا، باختصار، رجل تغلبه شهوته.

قالت دندنة:

ـ أنت تراوغ بشكل يثير الإعجاب.. تتخفّى وراء شهوتك للتملّص من جريمتك، ألم تسمع بالجرذ الذي يقفز من القارب وهو يغرق.. أنت هو هذا الجرذ!

قالت فدوى بدم أفعى في الشتاء:

ـ وبعد.. يا حضرات الخطباء؟ هل بقي لديكم شيء يصلح للخطابة؟ أنا عندي رأيي الذي أعلنته بملء إرادتي، ولست بنادمة عليه.. افعلوا بي ما يحلو لكم، فأنا فدوى ولست رئيفة.

قال ميلاد:

ـ ولأنّك فدوى ولست رئيفة، أرجوك أنْ تشرّفيني بصحبتك إلى مكان قريب جدًّا من هنا.

صاحت به:

ـ من أنت أوّلاً؟

ـ أنا من صيّادي الذئب الأسود، وشاء حظّي اليوم أن أصطاد ذئبة سوداء، وكلّ ما أطلبه منها أن تنصاع، مع يقيني التامّ بأنّها أذكى من أن ترفض الانصياع.

صرخت فدوى:

ـ أغرب عن وجهي، أيّها الصبيّ الأرعن.. واسمع جيّدًا ما أقوله لك: إذا أردت السلامة ابتعد عنّي، لأنّك لا تعرف من أكون!

قال ميلاد:

ـ ما تقولينه صحيح كل الصحّة، فأنا لا أعرف مَن تكونين، لكنّك، أنت أيضًا، لا تعرفين من أكون، وبذلك نتعادل.. واسمحي لي، قبل كلّ شيء، أن أكون صريحًا معك، وأن أقول لك، ببساطة، ناوليني الخنجر الذي تخفينه وراء ظهرك، وإلاّ أخذته بالقوّة.

زمجرت وهي تشهر خنجرها:

ـ خسئت!

لكنّه أمسك بها من معصمها، وقال:

ـ هذه الذراع تصلح للفراش لا للقتال.. ارمي الخنجر وإلاّ كسرت الذراع التي تحمله..

قالت دندنة:

ـ هذا ما يجب.

وفحّت فدوى كأفعوان:

ـ هذا ما يجب يا عاهرة!؟

ردّت دندنة وهي تبصق في وجهها:

ـ بعد قليل ستعرفين مَن منّا العاهرة، يا عاهرة!

ـ ٣ ـ

كان الأرقش يجلس بعيدًا، واضعًا رأسه بين كفّيه، وكانت قمْطرة تمنع أيّ إنسان من الاقتراب منه، خوفًا عليه من الإزعاج ومن تطفّل المتطفّلين، الذين افتقدوه بين هذا الجمع الحاشد من الصيّادين والصيّادات، أصحاب الأسئلة، والشكاوى، والقضايا المتنوّعة، بينها ما هو مهمّ، وما هو تافه، وما هو مضحك لسذاجته أو طرافته، والنظر فيها من اختصاص الحكيم، لولا أنّ الحكيم يجلس على صخرة النبع، ويفكّر مطرقًا مثل الأرقش وبعض الآخرين.

«نحن مخترقون، الكلّ مخترق.. وهذا، في شناعته، هو الواقع الذي فاجأنا، وانقضّ كالصاعقة على رؤوسنا» ـ فكّر الأرقش في إطراقته، في وحدته، في عذابه النفسي المبرّح، وهو يدخّن بكثافة، ماضغًا المرارة، بسبب هذه النكسة غير المتوقّعة، مع أنّها من الأولويّات.

جاءته قمْطرة بفنجان من القهوة، على أمل أن يتبدّل مزاجه العكر، وبعد أن شرب القهوة وواصل التدخين، جلست إلى جانبه صامتة، تداري همّها، كي تستطيع مداراة همّه، وهو يسترق النظر إليها، مستأنسًا بها، مُعزًّا لها لأنّها تحترم صمته، وتعرف أن تصمت عندما يكون الكلام نافلاً.

مقولة «اليوم خمر وغدًا أمر» لم تكن مقولة الأرقش، اليوم لا خمر ولا أمر، وفي ذاته كان يرغب أن يكون مأمورًا لا آمرًا، آخذًا وجعه لحسابه الخاصّ، لأنّه المسؤول عن كل ما حدث.. وليس في هذا أيّة نزعة لتعذيب النفس، وإنّما إقرار بالفشل، حتى ولو كان جزئيًا هذا الفشل، ويمكن إصلاحه الليلة بالذات.

وعندما تجرّأت قمْطرة، وسألته:

ـ ما سبب هذا التبدّل في مزاجك يا أرقش؟

أجابها بنبرة يقطر منها الأسى:

ـ الاختراق يا قمْطرة، الاختراق! لقد اخترقونا كما اخترقوا غيرنا.. الجميع مخترق، في الغابات والمدن، ولم يسلم من الاختراق أيّ حزب، في أيّ بلد، رغم كلّ ما يقال عن ائتلاف هذه الأحزاب، وسواء كانت في جبهة واحدة، أو تعمل منفردة، وكلّ كلام عن التعدُّديّة السياسيّة كلام خلبي، لا تأخذه الجهات المعنيّة أبدًا في حسابها.. إنّه، بالنسبة إليها، هراء!

قالت قمْطرة بعد تفكير، ارتسم همًّا وعزمًا على وجهها:

ـ شكوكي، إذن، ليست مبنيّة على رمل.. كنت، يا الأرقش، أشكّ، وقد لجمت شكوكي حتى لا ينفرط عقدنا، على أمل أن تنصلح الأمور، لمجرّد معرفة بعض الأشياء عن بعض الناس، وفي المقدّمة رئيفة..

قاطعها الأرقش:

ـ عرفت منك عن رئيفة هذه ما يجب أن يُعرف.. أمّا فدوى

هذه، ومعها نافع الداري، فكنت أظنّ أنّ ما بينهما علاقة حبّ، تطوّرت إلى علاقة جسد، وهذا طبيعي، بين رجل وامرأة في الغابة، ولا أعتبره خيانة لي أو لغيري، لكنّ المسألة لم تكن خيانة جسد، بل خيانة قضيّة..

ـ خيانة الجسد، يا أرقش، تؤدّي إلى خيانة الهدف.

ـ أنا لست من هذا الرأي، هناك ما يسمّى بوفاء القلب وخيانة الجسد.. ولست معنيًّا بخيانة الجسد، مادمنا بشرًا كلّنا.. وماذا يفعل البشر إذا كانت هناك غريزة تعوي؟

ـ نُسكت عواء هذه الغريزة، نخنقه.. ونبقى أوفياء لمن نحبّ.

ـ هذه مثاليّة تجانب الواقع، وأنا أرفض المثاليّة حين تكون، أو نرغب أن تكون، طهريّة! قلت لك إنّنا بشر، ودليلي على ذلك ما حدث للحكيم بشير، الذي رغب، مدفوعًا بشهوة احتواء جسد رئيفة بين ذراعيه، فكان أن دفعته في صدره، وأسقطته في حوض النبع.. الحكيم عضّ أصابعه ندمًا، لا لأنّه رجل، بل لأنّه حكيم معروف، وحكمته هي التي تجعل فعلته مستغربة، وتجعلها مشبوهة ومشكوكًا في صدقيّتها.. وقد أصيب الحكيم بشير، بعد هذه الحادثة، بصدمة شديدة، ولزم الصمت غالبًا لشدّة حيائه، مع أنّ المسألة طبيعيّة جدًّا، لو كنّا في غير هذا الشرق، وما فيه من ممارسات مستترة، غير صحِّيَّة، في علاقة الذكر بالأنثى!

قالت قمْطرة:

ـ ولكنّ الحكيم يعرف أنّ رئيفة تحبّك أنت، وقد حاول خيانتك معها، أفلا تترك هذه الخيانة أثرًا في نفسك؟

أجاب الأرقش بنبرة قاطعة:

ـ أبدًا! رئيفة تحبّني، وأنا لا أحبّها، وحتى لو كنت أحبّها، فإنّها غير مطوّبة باسمي، وأنا غير مطوّب باسمها، وعندما لا يكون هناك تطويب لا تكون هناك ملكيّة، ولا تكون، كذلك، هناك مشاعيّة.. ومؤسّسة الزواج الكاثوليكي أسوأ المؤسّسات، لأنّ فيها هجرًا، وليس فيها طلاق، وهو أبغض الحلال كما تعلمين!

ـ أفهم من هذا أنّك تبرّر فعلة الحكيم بشير؟

ـ أراها طبيعيّة، وكل ما هو طبيعي لا يحتاج إلى تبرير..

ـ وغير حاقد على رئيفة؟

ـ لا! إذا ما كان الأمر يتعلّق بالحبّ، لكن ما فعلته رئيفة، كما علمت منك، يخرج عن دائرة الحبّ، إنّه نوع من الخيانة الإجراميّة، التي يعاقب عليها القانون، وعلينا جميعًا أن نعمل ليكون هذا القانون عادلاً، ولو كانت هناك دولة قانون، وكان هذا القانون عادلاً، شاملاً، يطبّق على الجميع، ولا يقفز عليه أسياد القلاع، لما كانت هناك ذئاب سود، ولما كنّا نحن هنا لمكافحتها.

ـ لكنّك أنت هنا، تفكّر وتفكّر، ولا تعرف ما يجري هناك، عند النبع.. التفكير، في حدود رأيي، لا ينبغي أن يستغرقنا، وأن يجعلنا نتقوقع، كالصوص في قلب البيضة.. الطبيب ياسر قليل التجربة، وهو السبب في حالة الجنون التي صارت إليها رئيفة.

ـ وهل جنّت رئيفة؟

ـ هسترت إلى درجة الجنون، خوفًا من الإعدام!

ـ أيّ إعدام هذا؟ ومن أخافها به؟

ـ المثل القائل: «المحكوم بالإعدام يخاف من جرّ الحبل».

ـ ولكن مثلاً كهذا لا يخيف إلاّ المذنب. . هل رئيفة مذنبة إلى هذا الحدّ؟

ـ مذنبة بسبب الحبّ. . حبّها لك دفعها إلى إطلاق النار عليك، وإلى التآمر على قتلك، وهذا، كما خيّل إليها عقابه الإعدام. .

ـ وماذا فعل الحكيم بشير؟

ـ وماذا يفعل إذا كان الطبيب ياسر قد أخطأ، من حيث رأى أنّه صواب!؟ فقد كان عليه أن يعطيها بعض الحبوب المهدّئة، لكنّه أشهر الحقنة في وجهها، فظنّت أنّ الحقنة هي السمّ الذي يريدون إعدامها به، لذلك راحت تصرخ: «لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت!»

ـ وكيف هي الآن؟

ـ اذهب إليها ترَ حالها. . ولكن دون تأخير. . إنّني مهتمّة بأمر الآخرين، المجرمين الحقيقيين، وسآمر بإشعال النيران حول منطقة البئر، حتى لا يكون الليل ستارًا للهرب. . وعليّ، أيضًا، أن أعدّ ما يلزم لأجل المحاكمة غدًا صباحًا، وأقترح أن يكون أكرم رئيسها، ودندنة وكيل الادعاء، وواحد من الصيّادين محامي

الدفاع.. وأنا شاهدة مع بقيّة الشهود.. قد أرسلت أدعو الصيّادين من كل الغابات لحضور هذه المحاكمة، وكي نبحث موضوع القلاع، والذئاب السود، في ضوء ما سيتكشّف لنا من قضايا خلال المحاكمة.. ما رأيك؟

قال الأرقش:

ـ لو كان بين الصيّادين والصيّادات امرأة أخرى مثلك، لكان نجاح حملتنا مضمونًا.

قالت قمْطرة:

ـ هناك الكثيرات يا الأرقش.. هل تعرّفت إلى الصيّادة دندنة؟

ـ سمعت باسمها لأوّل مرّة، حين اقترحتِها لتكون وكيل الادّعاء في محاكمة الغدّ.

ـ وفي الغد تعرف مَن تكون دندنة.. إنّها خرِّيجة في الحقوق، ومارست المحاماة، ولها من الذكاء، والحزم، وسرعة البديهة، ما كنت أتمنّاه لنفسي.. وهي قائدة الصيّادين في الغابة الأكثر عددًا من السكّان، بين الغابات الأخرى.. إنّها سمراء، فارعة القامة، على ملاحة تأسر القلب، لكنّها لن تبلغ أن تأسر قلبك، لأنّه من حجر.

هتف هدهد:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي　وللحبّ ما لم يبق مني وما بقي

وغرّد هدهد آخر، على طريقته في الصياء:

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه　ولكن مَن يبصر جفونك يعشقِ

سأل الأرقش:

ـ وهل جفونها ساحرة بهذا الشكل؟ وأنت، ألا تغارين منها؟

ـ ولماذا أغار منها؟ هل أنا حبيبتك يا الأرقش؟ وحتى لو كنت، فإنّ الغيرة عليك، هي سهري على صحّتك وسلامتك، فهل تسمّي ذلك غيرة؟ ثم ما هي الغيرة؟

ابتسم الأرقش وقال:

ـ الغيرة حارسة للحبّ، فإذا تعدّت هذا الحدّ صارت غيرة لا تطاق، غير مرضية!

قالت قمْطرة:

ـ رئيفة تغار عليك إذن غيرة مرضيّة.. وهذه الغيرة دفعتها إلى إطلاق النار عليك.. اذهب إليها، اجبر بخاطرها، ابعث الطمأنينة في قلبها.. أنا ذاهبة، ولا تسألني إلى أين!

صاء هدهد:

يا لائمي في هواه والهوى قَدَرٌ لو شفّك الوجد لم تعزل ولم تلمِ

أضاف هدهد آخر:

ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبدًا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنمِ

رئيفة كانت تضع رأسها على ركبة الحكيم بشير، وكان الحكيم بشير يسلّك شعرها بأنامله، مستعيدًا ما جرى بينهما، عاتبًا على نفسه لأنّه انساق وراء شهوته، مدركًا، بإحساس خفيّ، أنّ رئيفة كانت لها الشهوة نفسها، فالعناق، حتى ولو لم يعوّض عن الارتواء، إلاّ أنّه نوع من الارتواء، يكفي كهلاً مثله، طال به الغياب عن زوجته.. ورئيفة قبل أن تصاب بالانهيار العصبي، قد

منحته لذاذة الدفء، من خلال تنفّسها الحارّ، وبحّة صوتها التي تشي بأنّها تشمّ رائحة رجل.. إنّها تحبّ الأرقش، وكل ما فعلته كان بدافع من هذا الحبّ، والأنثى المحرومة كالذكر المحروم، كلاهما يلوب الاغتلام في جسده، ويجد في الآخر شميم جسد آخر، يأنس له، في الحلم واليقظة، وما دفْعها إيّاه إلى حوض النبع، إلاّ تمنّعًا مغناجًا، هو من طبيعة الأنثى، التي تريد ولا تريد، إلى أن تقرّر في المآل ما تريد، وغالبًا تريد، لكن ليس من المحاولة الأولى.. كان على الحكيم بشير أن يقوم بمحاولة ثانية، حال بينه وبينها أنّه في الكهولة وهي في الشباب، وأنّه عرف، بين جميع الصيّادين، بحكمته التي كرّسها لاستنفارهم، وتقديم النصح لهم، وفضّ الخلافات بينهم، واستنهاض همّة مَن تقاعس، ولو قليلاً، منهم، ودفع الملل عنهم، بسبب من أنّ جهودهم للعثور على الذئب الأسود، قد طال أمدها، وكاد اليأس يستولي عليهم، حتى أنّ الكثيرين منهم، بات يميل إلى التطرّف، وإلى الأخذ بمقولة الأرقش: إنّ القلاع هي مصدر هذه الذئاب، ودون القضاء عليها، يستحيل القضاء على ذئابها، بينما يقف هو ضدّ هذا الاتجاه، الذي لم يؤن أوانه بعد، ثم فجأة يجد نفسه عبدًا لشهوته، ينقاد لها انقياد الأعمى إلى عصاه، التي تسبقه في استكشاف عوائق الطريق، فماذا يقول الصيّادون عنه؟ وبأيّ وجه يقابلهم؟ وبأيّة عينين ينظر في عيونهم؟ لا! المحاولة الأولى كافية، ومَن سمع بها، وهم قلّة، عذروه في أمرها، أمّا إذا تكرّرت، فإنّهم سيقولون: «أين حكمة حكيمنا؟ وكيف أذلّته شهوته؟ ومَن نصدّق بعد الآن، رئيفة أم هو؟ وهل يمكن لكهل أن تلعب به شابّة؟ رئيفة جميلة، لكنّها صيّادة، فأين حرمة الزمالة؟

وأين الوعي، مادام العارف بيننا فقد وعيه؟ وكيف نثق به، بعد أن أفقدنا الثقة بنفسه؟ وكيف نأمن على نسائنا، إذا كان المؤتمن عليهنّ قد خان الأمانة؟»

رئيفة تضع رأسها على ركبة الحكيم بشير، أنفاسها جذوة تحرقه، شعرها الطويل، المنسدل على كتفيها، يلهب أنامله، شفتاها المنفرجتان عن أسنان بيض، في انتظام لا نتوء فيه، حارّتان بعد البكاء، وشهيّتان بسبب هذا البكاء، تلامسان جسده، وقد سألته، قبل أن تصاب بالنوبة الهستيريّة: «تتزوّجني!؟» فلم يجبها.. طال انتظارها ولم يجبها. تساءل: «تتزوّجني لأنّها تحبّني؟ لا! تتزوّجني لأنها، ككلّ امرأة، لا بدّ لها من زوج؟ لا، نعم، من يدري، الأرجح، يا حكيم، أنّها تنشد حمايتك، فهل أنت قادر أن تحميها؟ لماذا فعلتْ ما فعلتْ؟ لماذا أطلقت النار على الأرقش؟ ولو مات الأرقش ماذا يكون عقابها؟ وماذا يكون موقفي، أنا زوجها، منها؟ أسامحها؟ أغضي عن جريمتها؟ آخذها بجريمتها؟ أضع نفسي حيث يجب ألاّ توضع؟ هذه حوّاء العصر، وأنا، في نظرها، آدم العصر، فماذا بعد أكل التفّاحة يا حوّاء؟ ننزل، أنتِ وأنا، إلى الجحيم؟ إنّ لك عقلاً شيطانيًّا، وهذا العقل وضع في حسابه، أنّني سأكون، بعد موت الأرقش، أنا الأرقش، أنا من يقود الآخرين، وأنا من آمرهم فيطيعون. وعندما أكون الآمر، تكون هي في أمان، لأنّها زوجتي، وعندئذ تنجو من أخذها بذنبها، وهذا غير ممكن، لأنّ هناك سمعتي في كفّة، ونزاهتي في كفّة، وكان عليها أن تكون موقنة، أنّني لا أتخلّى، حتى لأجلها، عن هذه النزاهة، وأنّني، أيضًا، لا أستطيع، لأنّ هناك قمْطرة، وقمْطرة رهيبة، لن تدع دم الأرقش يهدر،

وستأخذني بجريرتي، ويقف الصيّادون في صفّها، وأفقد بذلك حكمتي وشرفي.. أضيع، ولأجل أيّ شيء؟ لأجل امرأةٍ!! هل تضيع يا حكيم في سبيل امرأة، وأنت في هذه السنّ!؟ لو كنت شابًّا لكان لي بعض العذر، ولقالوا إنّه طيش الشباب، إلاّ أنّني كهل، ولي قضيّة، ولي حكمة، وكل تصرّف لا يراعي هذه الأمور يجعل الصيّادين على يأس من وجود إنسان يأخذ بيدهم، ويحافظ على قضيّتهم، ويضحّي في سبيلها.. آه ما أصعب موقفي، وما أشدّ بليّتي، وما أكبر مسؤوليّتي! اللعنة على الحكمة، وعلى الحكيم، وعلى البلاء الذي ابتليت به!».

صاء هدهد:

ربّاه، عفوك، إنّي كافر جانٍ جوّعت نفسي، وأشبعت الهوى الفاني

أردف هدهد آخر:

تبعتُ في الناس، أهواءً محرّمةً وقلت للناسِ، قولاً عنه تنهاني

بكى الحكيم من لوعة، من حسرة، من إشفاق على نفسه وعلى رئيفة، من صدق ما قاله الهدهدان، من الورطة التي هو فيها، من الصراع الداخلي بين عقله وقلبه، من التقريع الضميري، من انطباق ما سمع، عن تجويع النفس وإشباع الهوى الفاني، وتساقطت قطرات من الدمع على الجانب المائل، المكشوف، من وجه رئيفة، فاستشعرت إثمًا شائنًا، لاعجًا، في الحنايا من صدرها، لأنّها كانت السبب في إيذاء الحكيم مرّتين: الأولى عندما أسقطته في ماء النبع، والثانية عندما التجأت إليه، ناشدة حمايته، فتسبّبت له في حرج وعذاب، بكى من وطأة إبهاظهما، لذلك رفعت رأسها قليلاً، وسألته بصوت واهن:

ـ أتبكي يا حكيم؟

قال الحكيم مداريًا ما به:

ـ لا! لا أبكي يا رئيفة!

ـ وهذه الدموع؟

ـ من دخان السيكارة الذي حرّ إحدى عيني.

ـ أريد أن أصدّقك لأنّك لا تكذب، وأشكّ في قولك إشفاقًا عليّ.. أنا، الآن، أعترف: أحبّك يا حكيم! نعم! أحبّك، وآسف على ما بدر منّي حيالك.. ولكن ماذا ينفع الحب وأنا سائرة إلى الإعدام؟

قال الحكيم بهدوء ورصانة:

ـ لن تعدمي يا رئيفة!

ـ بلى! أعرف.. وهذه الدموع رثاء مسبق، تكفي لتعزيتي قبل الفراق الأخير!

ـ أقول لك لن تعدمي، وأنا لا أبكي لأجلك!

ـ أنت تبكي شبابي، الذي أخطأ ولم يعانق كهولتك قبل فوات الأوان! هل تحبّني الآن، كما أحبّك الآن؟ قل: أحبّك! وهذا يكفي.

ـ أحبّك يا رئيفة!

ـ الآن وفي كل أوان!؟

ـ الآن وفي كل أوان!

ـ وستبكي عليّ؟

ـ إنّني منذ الآن أبكي!

ـ وهل ستضع زهرة على قبري؟

ـ سأضع زهورًا على قبرك.

ـ وستزوره؟

هتف هدهد:

لولا الحياء لنالني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يُزارُ

سألت رئيفة:

ـ هل سمعت الهدهد يا حكيم؟

ـ سمعته يا رئيفة!

ـ سأموت، إذن، مرتاحة.

ناح الحكيم وهو يضمّها إلى صدره:

ـ لا! لن تموتي، أو نموت معًا، توقّفي عن إبكائي وإلاّ فضحت نفسي!

كان الأرقش قد وصل، وكان يقف وراء الحكيم بشير منذ وصل، وكان رغم جبروته يبكي، لأنّه لم يستطع إلاّ أن يبكي، لا لأنّ رئيفة تحبّ الحكيم، بل لأنّه أحبّ رئيفة ذات يوم، ودفعها إلى الجنون في يوم آخر، والآن هي هادئة، فهل يدعها هادئة ويمضي؟ يختفي من حياتها، بعد أن ظهر في حياتها؟ يقول لها: «سامحيني يا رئيفة!! وهل تسامحه رئيفة؟ إنّه الجاني الحقيقي،

وهي المُجنى عليها حقيقة، فهل يملك الجرأة ليقول ذلك في المحكمة؟ وإذا قال ذلك غير هيّاب، فما تأثير ذلك على الحاضرين؟ وأيّ ضرر سيلحق بالقضيّة.. وأيّهما الأحقّ بالرعاية: رئيفة أم القضيّة؟ لا! القضيّة! إنّني مع القضيّة، وسأبقى شامخًا لأجلها، مكافحًا في سبيلها، حتى لا يقال إنّ الحبّ أقوى، مع أنّ الحبّ أقوى، غير أنّ الحبّ ألوان، وحبّي لها لون من هذه الألوان، ولم يفت الوقت بعد، كي أقول لها كلمات لطيفة، مؤاسية، مشجّعة، وكما يليق بي، سأسقط غدًا حقّي الشخصي، سأقول بصوت عالٍ، ليس لي حقّ شخصيّ على هذه المتّهمة، الحقّ على الحبّ، فحاكموا الحبّ إذا استطعتم، ولن تستطيعوا، لأنّ الحبّ هبة السماء إلى الأرض، ونعمة الباري لبني البشر».

تقدّم الأرقش نحو الصخرة، أطرق الحكيم وهو يجلس على الصخرة، كان خجلاً من الأرقش، وكان الأرقش خجلاً منه، وانتبهت رئيفة على يد تنث حرارة، تداعب وجنتها، تمسح بالحنان وجنتها، وصوت حدب يقول لها:

ـ أنا الأرقش، يا رئيفة، فهل تذكرين الأرقش بعد يا رئيفة؟

انكمشت رئيفة، وبدلاً من أن ترفع رأسها عن ركبة الحكيم، ضغطت به على هذه الركبة، وراحت تبكي وهي تصرخ:

ـ ماذا جئت تفعل هنا؟

قال الحكيم بشير:

ـ جاء ليراك، أفلا تريدين أن تريه؟

ـ لا! لا أريد أن أراه، أنا لست بحاجة إلى كلمة وداع منه.

قال الأرقش:

ـ لم آتِ مودّعًا، ثم لماذا الوداع يا رئيفة؟ جئت مكفّرًا عن ذنب ارتكبته، أفلا تقبلين تكفيري عن ذنبي؟

ـ لا أقبله، ولن أقبله، بعد أن جنيت عليَّ.

قال الحكيم بشير:

ـ وبماذا جنى عليكِ؟

ـ بحبّه!

ـ المسؤول، في هذه الحال، هو الحبّ.

ـ بل خيانة الحبّ!

ـ الأرقش لم يخن في حبّه، كان مشغولاً عن حبّه بقضيّته، قضيّتنا جميعًا، وهذا ليس خيانة.

ـ أنا التي خنت، إذا ما كانت القضيّة فوق الحبّ.. إنّني أحبّك أنت يا حكيم، وأكره الأرقش الذي أدّى بي إلى هذا المصير، وسأعترف غدًا بكلّ شيء، هل تسمع يا أرقش؟ بكل شيء..

ردّ الأرقش:

ـ وأنا سأقول إنّني المسؤول عن كلّ شيء.. لقد أخطأت فوضعت القضيّة فوق الحبّ، وكان عليّ أن أعرف حقّ القضيّة وحقّ الحبّ، فلا أخلط بينهما، إلاّ أنّ العمل مقرون بالخطأ،

ومن لا يعمل وحده الذي لا يخطئ، وأنا عملت فأخطأت، وكان من الصواب أن تطلقي النار عليّ، أخذًا بثأرك منّي على خطئي.. انظري إليّ فقط.. سامحيني، لأنّي بنيّتي الطيّبة أستحقّ هذا السماح!

ـ لن أسامحك!

ـ وأنا لن أحقد عليك إذا لم أنل هذا السماح.. وعلى كل أنا هنا، إلى قربك، ليس لأجل السماح أو عدمه.. أنا هنا لأقول لكِ إنّك لن تُعدمي.. ولماذا الإعدام ومَن أدخل فكرته في رأسك؟ وإذا لم يكن هناك إعدام، فلماذا الوداع؟ أنا ما جئت مودّعًا، جئت مباركًا.. الحكيم بشير يستحقّ حبّك، وأنتِ تستحقّين حبّه، ولم يبق إلاّ المباركة، وأنا هنا لأبارك.. صدّقيني!

قال الحكيم بشير:

ـ عندما تكون هناك تضحية، فأنا أوّل من يضحّي.. مَن منّا تختارين يا رئيفة؟

قالت رئيفة بحسم:

ـ أنت يا حكيم!

وقال الحكيم وهو يقبّلها في جبينها:

ـ شكرًا يا رئيفة.

أنجزت قمْطرة، يساعدها أكرم، كل ما يلزم للصباح.. وكان ميلاد موّار النشاط، بخلاف الطبيب ياسر، الذي استلقى على العشب واستغرق في النوم. كان تعبًا وحزينًا لأجل رئيفة، التي أخفق في معالجتها من الجنون، وكان غير راض عمّا أثير من لغط حول جهله في معالجة الأمراض العصبيّة والنفسيّة.. لكنّه، في ذاته، كان مقتنعًا، أنّ جنون رئيفة سببه صدمة نفسيّة، وأنّ الحقنة التي حاول زرقها بها، كانت وحدها الكفيلة بإخماد هياجها، وجعلها تنام وتنسى ما يعذّبها، إلاّ أنّ رئيفة لطمت السيرانك الذي فيه مادّة منوّمة، قاذفة إيّاه إلى البعيد، تخيّلاً منها أنّ هذه المادّة هي السمّ، وبه اختاروا الطريقة الأنسب لإعدامها.

إنّ على الطبيب، في معظم الحالات المرضيّة، أن يكون حياديًا تجاه المرض والمريض، وخطأ الطبيب ياسر أنّه لم يكن محايدًا، كان مشفقًا متحسّرًا، منحازًا إلى مريضته، غير مقتنع بحكم الإعدام الذي ستعاقب به، لأنّها تآمرت على القتل، وباشرته بنفسها، وأمامه بالذّات، وإذا كان القتل لم يتمّ، فهناك محاولة القتل، وهناك فوق هذا الخيانة، والطبيب ياسر، الممسوس بجمال رئيفة منذ رآها وشغف بها، كان يأمل من صديقته العزيزة قمْطرة أن تساعده في إنقاذها، دون أن يجد طريقة

لهذا الإنقاذ، مكتفيًا بشعاره المبهم «لا يجوز قتل الجمال، لأنّه منحة من الله التي اختصّ بها بعض عباده»! وقتل الجمال يعني لديه معصية الله التوّاب الرحيم.

وعندما ذهب إلى قمْطرة، قبل أن يأكل وينام، أصغت إليه بانتباه، وتأمّلته باهتمام، ولم تقاطعه مرّة واحدة، لكنّه، عندما انتهى من كلامه، قالت له قمْطرة:

ـ أهبل!

أجفل في البدء، لأنّ أحدًا لم يسبق أن نعته بالهبل، وعزّ عليه أن يجد نفسه في جانب وقمْطرة في جانب آخر، وأن تصرخ في وجهه:

ـ أنت، يا ياسر، مجنون مثل رئيفة، وكلاكما بحاجة إلى علاج!

أضافت:

ـ أنت رخوٌ مثل فتيلة رفيعة من قطن، ومن غير اللائق بالنسبة لإنسان يزعم بأنّه مكافح، أن يشفق على امرأة، مهما تكن جميلة، إذا ما خانت هذا الكفاح..

ـ لكن رئيفة..

ـ اخرس، رئيفة مجرمة، ومتى كان الجمال يشفع للإجرام؟

ـ رئيفة ستدفع ثمن جمالها لا خيانتها.. كنت هناك وسمعت، سمعت كل شيء ووعيت كل شيء.. رئيفة أحبّت الأرقش، وهذا هو المهمّ.. من هنا بدأت القصّة، من الحبّ الذي أخفقت فيه،

وماذا تفعل المرأة إذا أخفقت في حبّها؟ أنتِ، يا قمْطرة، امراة وتعرفين، وبدلاً من هذا السخف غير اللائق واتهامي بالهبل، وكل الكلمات النابية التي أتقبّلها منك، ومنك فقط، كان الأجدر بك أن تكوني منصفة، أن تري جانبيْ المسألة: رئيفة جانب، والأرقش جانب. في الحبّ الذي من أجله كان الذي كان، وليس من العدل أن تدان رئيفة، ويفلت الأرقش من الإدانة.. هذا رأيي.

صاحت قمْطرة:

ـ احتفظ برأيك لنفسك، لأنّه رأي أخرق. رئيفة أحبّت، هذا على رأسي، والأرقش لم يحبّ، لأنّه لا وقت لديه للحبّ، وحتى لو كان لديه الوقت، فإنّه لم يحبّ، والحبّ لا يكون فرضًا، لا يكون بالإكراه، لا يكون بالتوسّل، بالضراعة، وحتى بالبكاء.. فما ذنب الأرقش؟

ـ ذنبه أنّه لم يلاطف التي تحبّه، لم يجلس معها ويطيّب خاطرها، لم يقل لها كلمة، وأنت لا تعرفين دور الكلمة، أمّا أنا فأعرفه.. شهادة الطبّ لم أجلبها من بيت أبي، ولم أصطدها من على شجرة، ولم تهبط عليّ من السماء، بل نلتها بالدراسة، بالعلم، بسهر الليالي.. وأقسمت، عند تسلّم هذه الشهادة، أن أكون إنسانًا، صادقًا في إنسانيّته، وأن لا أخونها أبدًا، ولأيّ سبب كان. وها أنذا أبرّ بقسمي، وسأكون مع رئيفة، وأشهد لصالحها، وأدافع عنها من هذه الزاوية، التي قد يغفلها غيري، وأطالب بتجريم الأرقش إذا ما جُرّمت رئيفة.. أنا لست لعبة في يد أحد، لا في يدك ولا في يد الأرقش!

ـ هكذا إذن؟

ـ نعم هكذا.

ـ هل تحبّ رئيفة؟

ـ لا!

ـ وهل تتزوّجها؟

ـ من يدري؟

ـ ألست شريكها في السرّ؟

ـ ومتى عرفتها لأكون شريكها؟ وهل تحسبين أنّني أخاف اتهامك الظالم؟

قالت قمْطرة:

ـ أستغفر الله يا أيّها النطاسي البارع! أنت، في نفسك، تريد التعويض، أخفقت كطبيب، وتريد أن تظفر كحبيب.. تحسبني جاهلة؟ أنا مثلك، خرِّيجة جامعة، وفي علم النفس أيضًا.. اعترف! بعض ما قلته صحّ، وأكثره خطأ، القانون لا يحاسب على أساس الحبّ، أو الجمال، أو طول الشوارب.. نحن هنا لأجل قضيّة، والإدانة، إذا ما كانت، على خيانة هذه القضيّة.. وأنت تعرف، لأنّك كنت هناك، وسمعت كل شيء، ووعيت كل شيء كما تقول، وبعد هذا تأتي لتخلط بين عبّاس ودبّاس!

قال الطبيب ياسر:

ـ إذا جرّدنا الروح عن الجسد، فما قيمة الجسد؟ جثّة! أنت، يا قمْطرة، تتعاملين مع الذين يخطئون، أو الذين يخيّل إليك أنّهم

أخطأوا، كجثث، مع أنّك لم تتعاطي مع التشريح يومًا. أنت قاسية، حقودة، ترين الناس من خلال الأرقش، وتحاسبينهم على أساس موقفهم من الأرقش، وأنا أسألك:

ـ هل تحبّين الأرقش؟

ـ ومَن لا يحبّ الأرقش؟

ـ كثيرون، إلاّ أنّ سؤالي عمّا إذا كنت تحبّينه كأنثى وذكر؟

ـ وماذا ترى أنت؟

ـ في اللاشعور تحبّينه كرجل، وأنت المرأة التي تحبّ هذا الرجل.. ولأنّك تحبّينه، تغارين عليه غيرة مَرَضيّة! وعندما نلتقي غدًا في المحكمة سأركّز على هذه النقطة.

نهضت وهي تقول:

ـ أنت تعب يا طبيب، نم، الآن، كالآخرين.. وغدًا أريك من أنت، وما قيمة كلّ السفسطة!

نام الطبيب ياسر، ذهبت قمْطرة تتفقّد أحوال الآخرين، على ضوء النيران المشتعلة، ولم تستطع أن تنام قبل أن تلقى الأرقش، وأن تقول له:

ـ كلامك، يا الأرقش، عن الاختراق في محلّه.. اخترقتنا القلاع. عندها، بيننا، أكثر ممّا كنت تتوقّع من أذناب.. وبينهم ـ تصوّر! الطبيب ياسر!

ابتسم الأرقش، سألها:

ـ ماذا فعل الطبيب ياسر أيضًا؟

سردت عليه كلّ الحوار الذي دار بينها وبين الطبيب، وزادت

عليه من عندها ما شفى غليلها، وكان الأرقش يصغي إليها ويهزّ برأسه، فلمّا انتهت قال لها:

ـ اذهبي ونامي.. أنت متعبة جدًّا!

ـ لا! أنا لست متعبة، ولا أكره رئيفة.. وإلاّ ما رجوتك أن تذهب إليها.

كرّر الأرقش قوله:

ـ اذهبي ونامي!

ذهبت قمْطرة لكنّها لم تنم، حديثها مع الطبيب ياسر أقلقها بما فيه من ادّعاءات، إنّها غير قبيحة، لكنّها غير جميلة، «والجمال، قالت في نفسها، يأسر الرجال، فكيف لم يأسر جمال رئيفة الأرقش، مع طول المعرفة؟ وكيف أسر الطبيب ياسر وهو يراها للمرّة الأولى؟ هناك شراكة بينهما، لكن ما نوع هذه الشراكة؟ التآمر على الأرقش؟ الاتفاق على قتل الأرقش؟ تَخفّي الطبيب ياسر في جلد ثعلب؟ كيف لم يكتشف الأرقش ثعلبته؟ كيف اطمأنّ على طبابته!؟ ألم يخش أن يضع له السمّ في الدواء؟ وما هي التهمة التي يمكن أن أوجّهها له؟ الأرقش لا يميل إلى اتهام ياسر، قال لي، جوابًا على كلّ ما سردته عليه: «اذهبي ونامي!» أنام؟ كيف أنام؟ أنا أفكّر فيه، ترى فكّر مرّة فيّ؟ هل حسبني يومًا إلاّ زميلة كباقي الصيّادات؟ هذا الشيطان ياسر لعب بي، سألني: «هل تحبّين الأرقش؟ أنا ما فكّرت في هذا الحبّ، لكنّه، في اللاشعور، قد يكون موجودًا، قد يكون نائمًا فاستيقظ، قد يكون من طرف واحد، طرفي أنا، دون أن يخطر على بال الأرقش، وهنا الطامّة الكبرى!».

في الصباح كان كلّ شيء جاهزًا، قوس المحكمة الذي من عيدان الصنوبر، قفص الاتهام الذي من الجذوع الصنوبريّة، الحراسة الكاملة على المتّهمين، الجمع الغفير من الصيّادين والصيّادات، الذي تقاطر على باحة النبع من كلّ الغابات، قمْطرة التي تتولّى، نيابة عن الحكيم بشير، إعلان الأسماء التي اتفق على تسميتها للمناصب التي ستشغلها، وقد كانت قمْطرة بعد ليلة من السهد قاسية الملامح، منعقدة الحاجبين، يتطاير شرر من نثار وميض، في نظراتها الحقود، المصوّبة إلى كل متهم، والمسدّدة إلى رئيفة بشكل خاصّ، ورئيفة ترتجف خوفًا، رغم كلّ ما سمعته من الأرقش والحكيم بشير ليلة البارحة، فهي تعرف أنّها مذنبة، وأنّها ستُؤخذ بهذا الذنب، لأنّ قمْطرة الغضوب، رغم إشفاقها عليها، وملاطفتها لها، عندما حدث لها الانهيار العصبي، فإنّ لها ثأرًا معها، وأنّ هذا الثأر نضح من كلّ جوارحها، لا تدري لأيّ سبب، فانقلبت من عدوّة إلى غريمة، ولا يعرف سرّ هذا الانقلاب إلاّ الطبيب ياسر!

التأمت هيئة المحكمة، الصيّاد أكرم للرئاسة، الصيّادان رفعت دَنَشْ وبهجت سخْسخْ مستشاران، دندنة في الادعاء، الصيّاد مغاور في الدفاع، المتّهمون في قفص الاتهام، الحراسة برئاسة قمْطرة، وكل متهم له حقّ تسمية شهود النفي، وللادعاء تسمية شهود الإثبات. وقبل أن تبدأ المحكمة أعمالها، برز الأرقش من بين الصفوف، مستأذنًا رئيس المحكمة أن يسمح له بكلمات قليلة، يعبّر فيها عن قضيّة مهمّة.

استهلّ الأرقش كلامه قائلاً:

ـ قبضنا، أخيرًا، على الذئب الأسود.

أطلق بعض الصيّادين الرصاص في الهواء فرحًا، زغردت بعض النساء من الصيّادات، سرت موجة من الهمهمة بين الحاضرين، تلفّت الحاضرون جميعًا نحو قوس المحكمة، ارتبك الرئيس أكرم، اعتقادًا منه أنّ القضيّة انتهت، وأنّ المحاكمة لم تعد واردة، وكاد ينهض من مكانه حين أشار له الأرقش، مستمهلاً إيّاه البقاء، إلى أن يفرغ ممّا يريد أن يقول، وجاءت قمْطرة بوجه عبوس، إلى أن توسّطت الباحة، متصالبة اليدين، متجنّبة النظر إلى الأرقش، الذي خيّل إليها أنّه يقوم بتمثيليّة لإنقاذ رئيفة من حكم الإعدام!

قال الأرقش بصوت قويّ، راعد النبرة:

ـ يا إخوتي الصيّادين والصيّادات، يا أعزّائي، يا أحبّائي! العرف السائد، بعد النطق بالحكم، بشرف ونزاهة، أن ترفع الأحكام إلى المرجع المختصّ، الذي وحده له صلاحيّة تثبيت هذه الأحكام، أو إصدار العفو فيها، وأنا أرشّح الحكيم بشير، بما له من أسبقيّة، ومن حكمة، أن يكون هو هذا المرجع، والقرار الذي يتّخذه نافذ المفعول علينا جميعًا. . فمن كان موافقًا منكم على هذا الاقتراح يرفع يده إلى أعلى.

رفعت الأكثريّة يدها، ما عدا أقلّيَّة بينها قمْطرة، التي قالت:

ـ الحكيم بشير حكيمنا، وهو الأصلح بيننا ليكون المرجع الذي له الكلمة الأخيرة، في تثبيت الأحكام، أو نقضها، أو التخفيف منها، شريطة أن تكون هذه الكلمة مقتصرة على أحكام

الإعدام وحدها، مادامت هذه المحكمة استثنائيّة، أي أنّها مجلس عدلي، لا استئناف فيه ولا نقض.. وأنّي، إذا ما كان لي، كما لسائر الحاضرين هنا، حقّ الاتهام، فإنّني أتّهم الأرقش هذا، الذي اتفق مع غيره، ليلة أمس، على إصدار عفو عن المتّهمة، المجرمة، رئيفة، التي تآمرت، وحاولت الاغتيال، وخانت قضيّتنا، ومَن يخون جزاؤه الإعدام رميًا بالرصاص!

ثارت ضجّة بين الحاضرين، ودقّ رئيس المحكمة بمطرقته طالبًا الهدوء، إلاّ أنّ صيحات تعالت مع الأرقش وضدّه، وكاد زمام الأمور يفلت، لولا أنّ شقّ الصفوف صيّاد، يدفع أمامه رجلاً مكتّفًا بالحبال، قائلاً بصوت جهوري:

ـ هذا هو الذئب الأسود.

اشرأبّت الأعناق من كلّ صوب، لرؤية الرجل الذي قيل إنّه الذئب الأسود، وحاول بعضهم، مدفوعًا بالحقد على هذا الذئب، الذي قضى الأعوام بمطاردته، أن يفتك به، غير أنّ الأرقش صاح بالمحاولين:

ـ ارفعوا أيديكم عنه، وكل من يمسّه بأذى، كأنّه يمسّنا جميعًا، إنّه متّهم، إلاّ أنّ المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

صاحت قمْطرة:

ـ خيانة! هذه هي الخيانة، والأرقش الخائن يريد إنقاذ الخونة، لكنّه لن يبلغ مرامه مادمت حيّة، وموجودة هنا!

نزلت دندنة عن قوس المحكمة، تقدّمت من قمْطرة بهدوء، وفجأة رنّت صفعة تلتها أخرى وأخرى.. وصاحت بها وهي تمسك بياقة فستانها:

ـ اخرجي من هنا يا وغدة، وإلاّ هرست رأسك بقدمي.. الأرقش لا يحمي الخونة، وليس هو بخائن، إنّما يسعى لإقامة العدل، وما حقدك عليه إلاّ لأمر شائن، تعرفينه جيّدًا إذا رأيت وجهك بالمرآة!

لكنّ الأرقش، الذي فطن إلى أمر ما كان يخطر له على بال، احتوى قمْطرة بين ذراعيه، مكفكفًا دمعها، حانيًا عليها، قائلاً لها «كوني عاقلة يا صديقتي العزيزة، وابقي بقربي، من غير تشويش على المحكمة».

وقال رئيس المحكمة:

ـ باسم الشعب العربي أفتتح الجلسة، الكلمة لممثّلة الادعاء الزميلة دندنة.

قالت دندنة:

ـ سيدي الرئيس، السادة المستشارين، نحن أمام قضيّة مقضيّة، بعد أن وقع الذئب الأسود في أيدينا، وهذا الذئب رجل كما ترون، وللرّجل حقّ الدفاع عن نفسه، وهناك من يدافع عنه، إلاّ إذا رفض وتعاون مع المحكمة، التي ترفع ميزان العدالة، لكنّنا سننظر، أوّلاً، بقضيّة صقرش وقمْطرة، فليتقدّما إلى أمام القوس.

تقدّم صقرش مؤدّيًا التحيّة العسكريّة دون مبرّر، تمنّعت قمْطرة في البدء، نادى عليها المحضر للمرّة الثانية، وبصوت أعلى، لكنّها أصرّت على التمنّع.. وعندئذ أخذ الأرقش بيدها، وأوقفها إلى جانب صقرش زوجها، فابتسم أكرم الرمّاح، رئيس المحكمة، وسألها قائلاً:

ـ أنت السيّدة قمْطرة؟ الاسم والكنية وتاريخ الولادة ومقرّ الإقامة. .

ردّت قمْطرة مصحّحة:

ـ الآنسة قمْطرة سيّدي الرئيس!

ـ كيف آنسة وزوجك صقرش إلى جانبك!

ـ أقول لك آنسة والسلام. فإذا لم تصدّق هات الداية لتتأكّد أنّ بكارتي سليمة، لم يمسسها رجل!

احتجّ صقرش:

ـ هذا طعن برجولتي سيّدي!

ـ هل أنت واثق من رجولتك؟

ـ مثل ثقة قمْطرة ببكارتها!

قالت دندنة:

ـ اسمع يا صقرش، وأنتِ يا قمْطرة!! هنا محكمة وليس مكانًا للحزازير. متى كان زواجكما، وهل هو شرعي بحسب الأصول؟

ردّت قمْطرة:

ـ طبعًا شرعي، عند المأذون، وبحضور شاهدَيْن، هما: الحكيم بشير والأرقش. . هل هذه حزّورة؟

زجرها رئيس المحكمة:

ـ تأدّبي يا قمْطرة، واشرحي لنا كلّ شيء، منذ عقد النكاح الشرعي، إلى ليلة الدخلة.

ـ لم تكن الدنيا ليلاً بل نهارًا، ولم تكن هناك دخلة كما هي الأصول، تزوّجنا وذهبنا إلى الغابة!

ـ وماذا فعلتما في الغابة؟ ألم يكن هناك نكاح بينكما، كما بين العريس والعروس؟

ـ كان بيننا نون وراء، فقط لا غير.. ثم لماذا الكلام بالفصحى؟ أنا لا أفهم إلاّ بالكلام العامّي الدارج، وقد قرأت الكتب القديمة، ووجدت أسلافنا يسمّون ذلك الشيء باسمه، واسمه يبدأ بحرف النّون..

ـ أي النكاح!

ـ لا! ليس النكاح، أقول لك النون وتقول لي النكاح.. هل قلت لزوجتك ليلة الدخلة سأنكحك، أم..

ـ أنا لم أقل لزوجتي مثل هذا الكلام.. لم أذكر النكاح ولا حرف النون.

ـ وكيف تمّت تلك المسألة؟ على الساكت؟ افهمني سيّدي الرئيس، لا عيب في الحلال، أنت قلت لعروسك كلمةً ما، غير النكاح، ما هي؟ النون طبعًا، وإلاّ جعلتني أعتقد أنّ زوجتك لا تزال آنسة مثلي..

قال رئيس المحكمة نافد الصبر:

ـ طيّب يا قمْطرة، قلت حرف النون، كما قال زوجك صقرش، وبعد؟

ـ مثل قبْل تمامًا.. لماذا أنت ضيّق الخلق؟ المسألة خطيرة، فيها فضّ بكارة، هل تعرف ماذا يعني فضّ بكارة؟

ضحك القاضي وتضاحك الحاضرون، واربدّ وجه دندنة فصاحت:

ـ ألا تخجلين يا قمْطرة؟

قالت قمْطرة:

ـ أخجل مثلك ومثل كلّ النساء، وبعض الرجال أيضًا، لكنّ المسألة فيها فضّ بكارة! ألم يفضّ زوجك بكارتك؟

ـ اخرسي!

ـ ولماذا أخرس ما دمت على الخطّ تمامًا، وفي لبّ المسألة، ولا عيب في الحلال؟ هل أنت آنسة مثلي، أم أنّ زوجك. . .

صاح القاضي مستعيدًا هيبته:

ـ يا قمْطرة، يا شيطانة، يا بنت ألف. . انتهينا من مسألة فضّ اللعنة، فإيّاك والعودة إليها. . هل تسمعين؟ ماذا جرى بينك وبين هذا البهيم صقرش بعد حرف النون؟

ـ دخلنا في حرف الرّاء. . ولكنّني، قبل الكلام على الراء، أسأل الدفاع: هل أنا على الخطّ؟

قال محامي الدفاع الصيّاد مغاور:

ـ أنت على الخطّ تمامًا، وأقسم برحمة زوجتي التي توفّاها الله صبيّة، في عزّ شبابها. .

ـ قبل النون أم بعدها كانت الوفاة؟

ـ وما علاقتك أنت بذلك؟

ـ علاقة المرأة بالمرأة يا جناب المحامي. . وهذه العلاقة تعيدنا إلى النقطة التي بدأنا منها: فضّ البكارة! هل. .

ضرب القاضي أكرم الرمّاح بمطرقته ضربات قويّة وزعق:

ـ ولا كلمة واحدة في هذا الموضوع. . هل أنت، يا آنسة قمْطرة، هبلاء أم تتهابلين علينا؟ خلصنا من حرف النون وندخل في حرف الرّاء. .

ـ ولماذا تصيح هكذا؟ أنا على الخطّ تمامًا، وقضيّة نون هذه أمّ القضايا، مثل أمّ المعارك، ألم تسمع بأمّ المعارك؟ إذا كنت لم تسمع فعندك نقص في الضمير القومي، وهذا يقودنا إلى قضيّة أخرى، خطيرة، مقدّمة على سواها، لأنّها تتعلّق بالتضامن الأخوي، بين الأشقّاء العرب. . الكلمة للدفاع، ألست على الخطّ يا دفاع؟

قال محامي الدفاع:

ـ لا يا قمْطرة، أنت، الآن، لست على الخطّ، خرجت من النون إلى السياسة، وهذا جرم يعاقب عليه القانون، لأنّه ممنوع، في الوطن العربي الكبير، الكلام في السياسة، خصوصًا لأمثالنا!

ـ وما هو المسموح يا دفاع؟

ـ الكلام على الطبخ والنفخ والإنجاب، ولعلمك أقول: ليس لدينا ما نطبخه أو ننفخه، لأنّنا على الحصير. . أمّا الإنجاب فحدّثي ولا حرج. . إحدى غاباتنا، أكبر غاباتنا، تعداد سكّانها يقارب السبعين مليونًا، ولماذا كل هذه الملايين؟ لأجل أمّ المعارك، هل فهمت، أم أزيدك علمًا!؟

وقفت دندنة وقالت:

ـ بصفتي كنائب عام في هذه المحكمة، أحتجّ على ما يجري في هذه المحكمة.. هناك غمز ولمز وتوريات. وحتى مع اعترافي بصحّة ذلك، فإنّني أطلب شطبه من محضر الجلسة لأنّه لا يجوز..

تعالت الأصوات:

ـ يجوز، ويجوز، ويجوز، نحن نختنق صمتًا في المدن، فهل نختنق صمتًا في الغابات أيضًا؟ قمْطرة على حقّ.. هناك معارك، وهناك أمّ المعارك، وهذا ما تقوله الإذاعات والتلفزيونات، وحتى الكومبيوتر والإنترنت، فلماذا نحرم منه نحن؟

أردفت أصوات أخرى:

ـ لا تشطبوا شيئًا في محضر الجلسة.. لأنّه لا شيء يضرّ إذا لم يشطب، وقد اعترفت دندنة، بصفتها الرسميّة، أنّ كل ما قيل صحيح، وهو ينفع الناس، وما ينفع الناس يبقى «أمّا الزبد فيذهب جفاء».. والسلام ختام.

قال رئيس المحكمة:

ـ ولأنّ السلام ختام فإنّني أرفع الجلسة، على أن تستأنف بعد ربع ساعة من الآن!

بطلب من الأرقش، اجتمع عند أجمة بعيدة عن النبع، أربعة أشخاص، هم الحكيم بشير، ودندنة، وأكرم الرمّاح، والأرقش، ليدخّنوا، ويتداولوا الرأي حول مجريات الجلسة الأولى للمحكمة، وما قيل فيها وعنها، والانسجام والنشاز، في كل التصرّفات التي بدرت، عن قمْطرة وصقرش، وكذلك الحاضرين الذين حوّلوا المحاكمة إلى مسرح، وبذلك أفقدوا الهيبة التي كان لا بدّ منها، سواء بالنسبة لأعضاء المحكمة، أو المتهمين الماثلين في قفص الاتهام، أو الدفاع، أو سيّد القلعة الذي هو الذئب الأسود.

رفض الحكيم بشير الكلام قبل السيّدة دندنة، ممثّلة الادعاء، التي عبّرت عن أسفها، لأنّ الأمور أفلتت من أكرم الرمّاح، رئيس المحكمة، الذي لم يعرف كيف يوقف هذه المهرِّجة، التي اسمها قمْطرة، عند حدّها الذي ما كان ينبغي أن تتعدّاه، وعن حرف النون وما فيه من دعر مستتر مكشوف في آن معًا، والضحك المعيب الذي لم ينتبه إلى عيبه القضاة، فشاركوا فيه.

اقترح أكرم الرمّاح أن يتخلّى عن رئاسة المحكمة، بسبب فشله في إدارة الجلسة، وصبره الزائد عن الحدّ على قمْطرة وثرثرتها، وفوق ذلك عدم قدرته على إظهار المهابة، الرصانة، الوقار،

وإيقاف المسرحيّة الهزليّة، التي أرادتها قمْطرة، وحقّقت ما أرادت من فحش القول، ومن تهجّم على الآخرين، وأوّلهم الأرقش الذي بدل أن ينهار سايرها وقال لها: «صديقتي العزيزة!» فتجرّأ الآخرون من الحاضرين، بالغمز واللّمز والتوريات السياسيّة، التي ستبلغ المسؤولين بغير شكّ.

ابتسم الحكيم بشير وقال: «هناك، عند البئر، كنّا نحاكم المذنبين، وهنا، عند هذه الأجمة، نحاكم أنفسنا، نجلدها إذا صحّ التعبير!» أضاف وهو يشعل سيكارة: إنّني مع رفض طلب، أو اقتراح، الزميل أكرم الرمّاح، بالتنحّي عن رئاسة المحكمة، فالأسباب التي أوردها غير كافية لتحميله المسؤوليّة التي حمّلته إيّاها الزميلة دندنة، والضحك الذي لم يستطع ضبط نفسه عنه، لم نستطع، نحن أيضًا، ضبط أنفسنا عنه، وكلّ ما آخذه عليه أنّه لم ينتبه إلى مناورات الدفاع، وما فيها من تشجيع لقمْطرة على الإمعان في غيّها، بقوله إنّها على الخطّ وفي لبّ القضيّة، مع كلّ خروجها عن خطّ المقاضاة، والانسراب، بطريقة إبليس، من قضيّة الذئب الأسود، إلى القضايا السياسيّة وأمّ المعارك، والإنجاب الزائد، والتصريحات والتلميحات التي ستبلغ أصحابها، وتجعلنا في صدام معها.. أليس كذلك يا أرقش؟

أطرق الأرقش عابسًا، فكأنّه الذي عناه الفرزدق بقوله: «يُغضي حياء ويُغضى من مهابته/ فما يُكلّم إلاّ حين يبتسم». والأرقش الذاهب بعيدًا مع تفكيره، رفع رأسه وابتسم وهو يدخّن، إنّما من غير أن يتكلّم، حتى قال له الحكيم بشير: «ألا ترغب في الإدلاء بدلوك يا أرقش؟»

قال الأرقش: «إنّني من يفاعتي وأنا مولع بالمسرح، وهذا اليوم فقط رأيت مسرحًا حقيقيًا، فيه المتعة والمعرفة، وفيه إلقاء كلمات الأدوار بجرأة، من غير تحضير أو حفظ، وهذا جيّد جدًّا، لأنّنا في محكمة ومسرح معًا.. وكان طابع المسرح غالبًا، لحسن الحظّ، قال فيه الجميع ما يريدون قوله، في قالب من الكوميديا السوداء، التي عرّت مَن يجب أن يُعرّى، وسخرت من الذين يستأهلون السخرية، دون حرج أو محاباة، ثم لماذا الحرج والمحاباة؟ هل خوفًا على أنفسنا من الذين تناولتهم الألسنة، بعد أن لزمت الصمت طويلاً، وانفكّ عنها السلك الذي لا يُرى، والذي كان يغلّها!؟ والله إنّي لمسرور بكلّ ما حدث، وبكلّ ما رأيت وسمعت، لأنّنا لسنا قضاة محترفين، وليس لدينا ما يؤهّلنا، قانونيًّا، لهذا الاحتراف، لكنّنا جميعًا على السجيّة، نتكلّم دون خوف، دون تردّد، دون توجّس من أذى يلحق بنا لأنّه لم يعد ثمّة أذى إلاّ وألحقوه بنا، على مرّ العقود الطوال! فإذا قيل إنّ هناك مصالح للأسياد، يكفلها القانون، أجيب: هنالك أيضًا مصالح للعبيد، للمستضعفين في الأرض، للمعذّبين، للفقراء والمساكين، يجب أن يكفلها القانون، إلاّ أنّ هذا القانون غير موجود بعد، وإذا وجد، ولو ناقصًا، عرف الأسياد كيف يلتفّون عليه، وكيف يفرغونه من مضمونه.. تسألونني: ألا تخاف؟ وأردّ: بلى! أخاف، لكنّني أصمد للخوف، وهذه هي الشجاعة. ووجودنا في هذه الغابات لمطاردة الذئب الأسود، هو الشجاعة، وفضحنا لأصحاب القلاع والدور والقصور، هو الشجاعة.. ودورنا في هذه المحاكمة ـ المسرح، أن نطرح القضايا طرحًا صحيحًا، جريئًا، ونترك الباقي لغيرنا، للذين بأحزابهم وتنظيماتهم

ومنتدياتهم وجماهيرهم، قادرون على التغيير، وعلى تحقيق أبسط مقوّمات العدالة.

أنا لست فوضويًّا، ولا أدعو إليها.. وباكونين، زعيم الفوضويين في العالم، خابت فوضويّته وانتهى إلى التماس العزاء في الموت، ولست متزمّتًا بحيث لا أضحك، ولست بهلولاً بحيث أضحك دون موجب للضحك، ولست مع التشدّد في الانضباط، في محكمة ـ مسرح كما حالنا الآن، كما لست مع الانفلاش حتى تفلت الأمور.. عودوا، إذن إلى أعمالكم، بحسب المناصب الاسميّة التي أوكلت إليكم، ومارسوا حقّكم في الحكم على المتّهمين باستقامة ونزاهة.. أدركنا الوقت، وعلينا أن نسرع.

تأخّرت جلسة المحكمة بعض الوقت، لكنّها، عندما عقدت، قوبلت بالتصفيق والهتاف وبشيء من نفاد الصبر، لمعرفة الراء، بعد النون التي شغلت بها قمْطرة المحكمة والحاضرين.. ومنذ اتّخذت دندنة مقعدها، وتقدّمت قمْطرة وصقرش من القوس، وهي تنظر إليها نظرات ثاقبة، عساها تدرك ما في داخل هذه الآنسة، التي تزوّجت ولم تتزوّج، فبقيت كما قالت محافظة على بكارتها، بغير مباهاة بذلك، وبغير أسى من أجل ذلك!

كان على دندنة، باعتبارها تمثّل الادعاء، أن تتكلّم أولاً، أن تلعب دورها على المسرح كما قال الأرقش، وهو دور صعب، مع مخلوقة يسكنها عفريت، وفي وسعها حين تشاء أن تتغلّب على هذا العفريت، أن تعيده إلى القمقم الذي خرج منه.. تأمّلتها من طرف خفيّ، رازتها بدقّة، تفحّصتها بفضول امرأة، تأمل بكلّ

الطرق الممكنة أن تسبر غور المرأة التي أمامها، كيلا تدعها كرّة أخرى تخدعها. . تتملّص من الأجوبة التي تردّ على أسئلتها، بعد كلّ الذي سمعته من الأرقش، واستوعبته تمامًا.

قالت دندنة وهي واقفة، بحسب الأصول:

ـ انتبهي إليّ يا قمْطرة، فكّري قبل أن تجيبي، ولكن عندما تجيبين لا تحاولي أن تكوني ماء في غربال، هذا لا يفيدك في شيء، سوى تعطيل عمل المحكمة، والمحكمة لديها قضايا كثيرة عليها أن تنجزها، فهل تعدينني بأن تكون أجوبتك مختصرة، وصادقة، ومباشرة؟

قالت قمْطرة:

ـ وعد الحرّ ديْن، وأنا حرّة ووعدي ديْن عليّ، والمثل يقول: «نحن وعدنا وما خلفنا بوعدنا». . أنا قمْطرة! وأنت تعرفين مَن هي قمْطرة، لا أعد وأخلف، لكنّني لا أشتري سمكًا في البحر، ولا أرمي صنّارتي لأصطاد من المقلاة. الجواب سيكون على مقاس السؤال، ولكن ما هو السؤال أوّلاً؟ وبماذا تفكّرين ثانيًا؟ ومع مَن كنت وقت رفع الجلسة!؟ الأرقش، يا جناب المدّعية العامّة، داهية، هكذا يحسب نفسه، غير أنّ دهائي يغلب دهاءه و. . .

دقّ رئيس المحكمة بمطرقته دقّات قويّة، عديدة، وقاطع قمْطرة قائلاً:

ـ العمى!

ردّت قمْطرة:

ـ العمى يعميك!

ـ يعميني؟ لا بأس، أعتذر.. ولكن احذري، هنا لا مجال للمحاضرات، ولا للّعب على الحبال، تأدّبي وإلاّ طردتك إلى خارج المحكمة.

ـ أنت تطردني من المحكمة؟ تطرد المحكمة من المحكمة؟ أنا هي المحكمة، وكلّ الأسرار في صدري، لذلك لا تستطيع أن تستغني عنّي، وإلاّ، كما يقولون «على نفسها جنت براقش!».

قالت دندنة:

ـ خارج المحكمة ستعرفين مَن أنا يا قمْطرة، هذا الشحم الذي في جسمك ورم، والمتنبّي قال: «أعيذها نظرات منك صادقةً/ أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم!».

ردّت قمْطرة:

ـ المتنبّي، لعلمك، كان يخاطب سيف الدولة، فهل أنت سيف الدولة؟

قالت دندنة:

ـ لا أنا سيف الدولة، ولا أنتِ المتنبّي.. سؤالي هو: ماذا بشأن حرف الراء بعد أن انتهينا من حرف النون؟ ولماذا أنتِ آنسة بعد أن تزوّجت بحسب الشرع، وذهبت مع صقرش هذا، لقضاء شهر العسل؟

ـ قولي يوم العسل! وليته كان، هذا الفيل صقرش، استعمل حرف الرّاء معي، فرفسته، وخلّصته من بندقيّته، فسحبت مشط الرصاص منها، وأعدتها إليه حطبًا، لا تضرّ ولا تنفع!

ـ وماذا بشأن حرف الرّاء؟

ـ المسألة وما فيها معيبة، لذلك أعتذر عن ذكرها.

ـ أنت قلت لا عيب في الحلال، وكان زواجك من صقرش شرعيًا وحلالاً، فماذا جرى؟

قال محامي الدفاع:

ـ الموكّلة اعتذرت عن الجواب، وإنّني أطلب من عدالة المحكمة أن تقبل اعتذارها، تجنّبًا للفضائح.

تداولت المحكمة فيما بينها، وقال رئيسها:

ـ الاعتذار مرفوض، وليست هناك فضائح، مادام كلّ شيء جرى بعد الزواج الشرعيّ.

قال المحامي:

ـ لكنّ الدخلة لم تتمّ، والموكّلة آنسة..

قاطعه رئيس المحكمة:

ـ والادعاء العام يريد معرفة لماذا هي آنسة؟

ـ الشذوذ سيّدي، والموكّلة تخجل من الاعتراف بأنّ زوجها شاذّ، وتأبى الدخول في التفاصيل.

صاحت قمْطرة بالمحامي:

ـ شاذّ؟ عن أيّ شذوذ تتكلّم أنت!؟ تقول إنّك لا تريد إثارة الفضائح، وها أنت تتكلّم على الشذوذ، وهو فضيحة الفضائح!

سألت دندنة الزوج صقرش:

ـ هل أنت شاذّ يا صقرش؟ وهل حاولت ممارسة الشذوذ مع قمْطرة؟

ناح صقرش:

ـ أنا لا أفهم عن ايّ شيء تتحدّثون؟

ـ عن الشذوذ!

ـ وكيف يكون الشذوذ؟

صاح صوت من بين الحاضرين:

ـ يعني ليس من أمام!

تعالت القهقهات من الحاضرين، ثار لغط بينهم، حدثت ضجّة، سارع رئيس المحكمة إلى وقفها وهو يدقّ بمطرقته دقًّا عنيفًا، مغالبًا ضحكًا راوده، فامتنع بصعوبة عليه.

قالت دندنة:

ـ ألفت نظر الدفاع إلى حراجة الموقف، وآمل أن يكتفي بما سأل!

قال محامي الدفاع:

ـ كيف أكتفي بما سألت، وموكّلتي آنسة، حتى بعد الزواج؟

ـ الزواج شيء، والدخلة شيء آخر.

ـ وأنا أسأل صقرش، هل تمّت الدخلة أم لم تتمّ؟

قال صقرش:

ـ أقسم أنّها لم تتمّ!

ـ لماذا؟

قال رئيس المحكمة:

ـ السؤال مرفوض، لم تتمّ الدخلة بسبب حرف الرّاء، وعلينا أن نسأل: ماذا يعني حرف الرّاء؟ وهذا وحده يكفي.. لماذا، يا، قمْطرة، لم تتمّ الدخلة؟ وماذا يعني حرف الرّاء اللعين هذا؟

قالت قمْطرة:

ـ أخجل أن أقول!

ـ أعوذ برب الفلق من شرّ ما خلق..

ـ تعوّذ كما شئت، لكنّني أخجل أن أقول!

ـ وأنت يا صقرش، قل لنا ماذا يعني حرف الرّاء؟

ـ أخاف من قمْطرة.. سيّدي؟

ـ أنت رجل. هل يخاف الرّجل من امرأة؟

تعالت الأصوات:

ـ الرجل لا يخاف إلاّ من امرأة.. وسل نفسك يا سيّدي القاضي!

قالت دندنة:

ـ مادام صقرش، وهو رجل، يخاف من قمْطرة، وهي امراة، لم يبق علينا إلاّ توجيه السؤال إلى الامرأة: ماذا يعني حرف الرّاء يا قمْطرة؟

ـ الركب سيّدتي، صقرش هذا قال لي: سأركبك!

ـ يركبك!؟ هل أنت دابّة!؟

ـ ماذا نفعل نحن النساء، إذا كان الرّجال، في هذا الشرق، يحسبوننا دوابًا.. حاشاكِ؟ صقرش هذا قال لي سأركبك؟

ـ وركبك؟

ـ لو ركبني هل كنت أبقى عذراء؟

ـ هل صحيح يا صقرش ما تقوله قمْطرة.. قلت لها: أركبك؟

ـ نعم! قلت لها: تعالي أركبك!

ـ سوّد الله وجهك، هل يقول العريس للعروس عند الدخلة: تعالي أركبك!؟

ـ وماذا يقول إذن؟ أنا على طريقة أجدادي وآبائي، وأحبّ الاختصار، والاختصار أن يركب الرجل المرأة.. ألم يركبك زوجك؟

ـ اخرس! أنت بهيم.. قطع الله لسانك.

ـ سواء قطعه أم لم يقطعه، يبقى الأمر على حاله: الرجل يركب المرأة، واسألي أعضاء المحكمة والحاضرين: هل ركبتم نساءكم أم لا؟

تعالت الأصوات:

ـ نعم! حصل، كلّنا ركبنا نساءنا!

ـ لكن قمْطرة رفضت أن أركبها، فماذا أفعل؟

ـ وأين العصا؟ لماذا خلقت العصا؟ المثل يقول: «اقطع رأس القطّ من ليلة الدخلة». . أنت حمار يا صقرش!

ـ صدقتم!

ـ وصدق من قال: هناك رجال وهناك أشباه الرجال. أنت، يا صقرش، شبه رجل!

ـ صدقتم أيضًا!

ـ نحن صادقون دون شهادة خرِع مثلك.

قال صيّاد من بين الحاضرين:

ـ اللعنة على صقرش هذا، وعلى قمْطرة وحرف النون والرّاء، هل نحن في محكمة أم تاترو!!

جاء صوت من ورائه:

ـ تياترو يا فهيم!

ـ بلّوط يا صاحبي، المهمّ أن نتسلّى!

ـ وهل هذا زمن التسليات؟

ـ أنت قلتها، هذا زمن التسليات، ألا يكفي أنّهم حرمونا من اللّقمة! فهل تريد أن يمنعونا من الضحكة أيضًا؟

ـ الجائع لا يضحك، ونحن جياع!

ـ الجائع هو الذي يضحك من الذين جوّعوه، أم تريدنا أن نبكي؟ لا! لن نبكي، لن نيأس، حتى لا نقع في فخّ اليأس الذي نصبوه لنا!

ـ وبماذا يفيد الضحك؟

ـ في قهر الذين يرغبون في قهرنا. . وهذا، وحده، يكفي. أنا سجنت في زماني، وبكيت في السجن، لأنّني تركت عائلتي بغير معيل، فماذا كانت النتيجة؟ أكْل هواء، لأنّ سجينًا سياسيًّا جاء إليّ وقال: احلق شواربك، لأنّك أجبن من امرأة، مع احترامي للمرأة، فالذين سجنوك يسرّهم أن تبكي بدل أن تضحك، وماذا يفيد البكاء سوى في زيادة القهر، وسوى في عدّ أيّام السجن؟ مَن يعدّ أيّام السجن يموت كمدًا، لأنّه يراها طويلة جدًّا، وهي ليست كذلك بالنسبة لمن لا يعدّها، لمن ينساها، لمن يضحك، متشفّيًا، من السجن والسجّانين ومن يقف وراءهم. . خذ دخّن هذه السيكارة. . دخّنتها، وجدتها شهيّة، لذيذة، قلت للرّجل: «أنت على حقّ!» أجابني: «طبعًا على حقّ. . هل سمعت بالذين، في الروسيا، أرادوا اغتيال القيصر الظالم؟ لا؟ لا بأس، هؤلاء حكموا بالنفي إلى سيبيريا، مع المؤبّد والأشغال الشاقّة، لكنّهم، وهم وراء القضبان، كانوا يضحكون من القياصرة، وقد ذهب القياصرة وبقوا هم أحياء. . هل فهمت؟ ما هو ذنبك. أجبته: «ضربت الآغا الذي اعتاد أن يضربني» قال: «أحسنت، بعد اليوم لن يتجرّأ الآغا على ضربك». . وكان ما قاله صحيحًا.

صاح رئيس المحكمة:

ـ مَن هم هؤلاء الذين يتكلّمون بصوت عالٍ، ويشوّشون على المحكمة؟

سكت الجميع، لا لأنّهم خافوا، بل لأنّهم احترموا الموقف. . وبعد لحظة قال واحد منهم:

ـ من الضروري أن نصغي إلى ما يجري.

فردّ عليه آخر:

ـ وماذا يجري؟ وهل هذه محكمة؟ ومَن من أعضاء هذه المحكمة تخرّج من كلِّيَّة الحقوق؟

قال الأوّل:

ـ في مثل هذه المحاكمات، لا ضرورة إلى حيازة شهادة الحقوق، الحقّ بيّن والباطل بيّن، وتبقى المسألة أن تكون الأحكام عادلة ونزيهة، وأنا لا أشكّ في ذلك.

ـ لا يا سيّدي شكّ.. هذه تياترو، بدليل قضاء الوقت في البحث عن معنى النون والرّاء، وهل يركب الرجل المرأة أم لا.. وكلّ هذا السخف الذي سئمنا منه، وقرفنا غاية القرف.. أنا أسألكم: «لماذا نحن هنا؟» والجواب معروف: «لاصطياد الذئب الأسود»، وقد اصطدنا أحد هذه الذئاب، أعني أحد أصحاب القلاع، وغدًا ترون كيف يتملّص، كيف يراوغ، كيف ينقلب من مُتَّهَم إلى مُتَّهِم، كيف يحصل على البراءة.. وحتى لو أدين، كواحد من أصحاب القلاع، فإنّ أصحاب القلاع كثيرون، وكذلك أصحاب القصور، التي تنبت كالفطر، وترتفع كالسحاب.. نحن في الزمن العربي الرديء، وما كان قبلاً، سيصير بعدًا، الزمن..

صاء هدهد على شجرة قريبة:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

تبعه هدهد آخر:

وتولّوا كلهم بغصّة منه وإن سرّ بعضهم أحيانا

قال الصيّاد لزملائه:

ـ هل سمعتم؟ هل استوعبتم؟ هل انتبهتم إلى هذا المقطع «وتولّوا كلّهم بغصّة منه»؟

زمجر صيّاد كان يقف جانبًا ويسمع:

ـ نعم، يا زميلنا، سمعنا، استوعبنا، انتبهنا، وماذا بعد؟ نتكتّف ونقعد؟ نلقي سلاحنا؟ نطمره؟ نحرقه؟ نحرق أنفسنا، على طريقة غيرنا، احتجاجًا، وكفى الله المؤمنين القتال؟ أنت تكلّمت طويلاً، ونحن أصغينا طويلاً، والذي استخلصناه من كلامك، أنّك تدسّ السمّ في الدسم، وأنّك من الذين لهم دور محدّد: تثبيط الهمم! فمن الذي أوكل إليك هذا الدور؟

صرخ الصيّاد:

ـ الذي أوكل إليّ هذا الدور هو هذه المهزلة التي اسمها محكمة.. إنّها تياترو، لا أكثر ولا أقلّ.

قال الأرقش الذي اخترق الصفوف:

ـ وما مأخذك على هذه التياترو؟ التياترو، في بعض معانيها، مسرح، وهذه المحكمة مسرح، ونريدها كذلك، فما اعتراضك على المسرح؟ الدنيا مسرح، الحياة مسرح، وأنت وأنا والآخرون جميعًا، ممثّلون على هذا المسرح، وكل منّا يؤدّي دوره المسرحي ويمضي، فأيّ دور يناسبك لنحجزه لك؟

صوّب الصيّاد بندقيّته إلى صدر الأرقش، وقال وهو يرتجف غضبًا:

ـ الدور الذي أريده أنا، فانطق بكلمة أخرى إذا كنت شجاعًا يا أرقش!

قال الأرقش بنبرة فيها برودة دم قاتلة:

ـ طيّب! هذا أيضًا دور جيّد، اخترته بنفسك، ولا اعتراض لي عليه.. أطلق النار عليّ، اقتلني إذا كان يروقك دور القاتل..

لم يطلق الصيّاد النار، فأضاف الأرقش:

ـ هل آمنت الآن أنّ الحياة مسرح؟ أنت تقتلني، ويأتي مَن يقتلك، ومَن يقتلك سيقتل، أو يحكم بالإعدام ويشنق.. وكل هذا من المسرح، وكلّ منّا يلعب دوره، بحرّيّة تامّة، بعفويّة تامّة، على هذا المسرح.. فما رأيك؟ هل من الأفضل أن تكون أدوارنا على هذا النحو، أي أن يقتل بعضنا بعضًا، أم أن نكون معًا، ونقتل العدوّ الذي أمنيته أن يفرّق بيننا، ويجعلنا نقتتل وهو يتفرّج علينا، ويفرك يديه فرحًا؟

تعالت الأصوات:

ـ أن نكون معًا ضدّ عدّونا يا الأرقش!

قال الأرقش:

ـ وبذلك يفشل العدوّ على مسرحنا، بعد أن نجح على مسرح غيرنا.. كلّ ما يريده الإسرائيليّون، وكذلك الأميركيّون والإنكليز، ومثلهم باقي الأعداء، وعملاء هؤلاء الأعداء من العرب، أن يزرعوا الفرقة بيننا، أن يدسوا، بذكاء لا ينقصهم، وخبرة أشبعت درسًا في مراكز أبحاثهم، بين بلداننا العربيّة،

ليؤلّبوا الواحد منها على الآخر، وأكثر من ذلك، أن يجعلوا الأشقّاء، في البلد الواحد، يقتل بعضهم البعض الآخر.. وهذه أدوار مسرحيّة مدروسة، مخطّط لها، بينما مسرحنا حرّ، وكلٌّ منّا يلعب دوره عليه بحرِّيَّة، فماذا تقول.. بعد الذي سمعته؟

قال الصيّاد وهو يعانق الأرقش:

ـ أعترف.. الحياة مسرح، ومسرحنا هو الأفضل، فلنحافظ عليه كما قلت يا أرقش.

في الصباح الباكر، كان الحكيم بشير والأرقش يجلسان على صخرة النبع، كانا يدخّنان، يفكّران صامتين، يستعرضان الأيّام التي مرّت، والمراحل التي تتالت، على كفاح الصيّادين لاصطياد الذئب الأسود، والمحكمة وشؤونها، والنون والرّاء وقمْطرة.. وهذا الجلف الذي اسمه صقرش، وكيف قال لقمْطرة: «تعالي أركبك!» فكان أن جرّدته من سلاحه، وبقيت عذراء كما أخبرت المحكمة.. ومحاولة القتل التي تعرّض لها الأرقش، ونبوءة المسرح التي صحّت، والحياة التي هي هذا المسرح، والدنيا ومسيرة الزمن.. وما قاله الهدهدان عن الزمن، وما نغَّص على الناس، وما سرّ بعضهم أحيانًا، ولمن كان التنغيص، ولمن كان السرور.

قال الحكيم بشير:

ـ كل شيء، يا أرقش، غدا واضحًا، فإذا تجاوزنا قمْطرة، ودهاءها الذي أربك المحكمة، حتى اضطر رئيسها إلى رفع الجلسة، فإنّ ثمّة حقيقة لا ريب فيها، تتلخّص بأنّ الصيّادين قد ملّوا، وأنّ مللهم بات واضحًا، صارخًا، منفلتًا من الانضباط، وأنّ تعليقاتهم المرّة، الصارخة، الساخرة، في صفوفهم التي وراء المحكمة، تدعو إلى التأمّل، إلى التفكير، وقد فكّرت في ذلك

طويلاً، في الليل، وصباحًا على هذه الصخرة.. وظنّي أنّك مثلي، كنت في صمتك تفكّر بما أفكّر به.

قال الأرقش:

ـ والله إنّك لحكيم يا حكيم، وأنا معك في كلّ ما قلت، وهذه المسرحيّة التي مثّلناها، في الواقع والخيال، قد شارفت على نهايتها، لكنّنا سنخرج منها بفوائد كثيرة، من خلال الطروحات والأقوال والأقوال المضادّة، حولها، فخروجنا إلى الغابات، وحملنا السلاح، ومطاردة الذئب الأسود، وإجماعنا، تقريبًا، على أنّ القلاع والقصور، وأسياد هذه القلاع والقصور، هم المبتدأ والخبر، في فقر الناس، والظلم اللاحق بهم.. وهذا، في رأيي، غير قليل، لأنّه فتح عيون هؤلاء الناس، نقلهم من غفلة الجهل إلى يقظة المعرفة، ومن المعرفة يكون الوعي، والوعي انتشر ومن المستحيل سكونه، ومن المستحيل، بعد اليوم، وقف نموّه وانتشاره، فالحركة الداخليّة، في وحدتها والتناقض، هي حركة انتقال الوعي من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأعلى إلى الأعلى منه، والتطوّر، ومعه الارتقاء، ناموس الحياة. ولن يبلغ القمع، مهما يشتدّ، أن يلغي هذا الناموس، أو يعطّل حركته، وفي الخير، والنفع، وحصاد الزرع الذي زرعنا.. المحكمة بدأت أعمالها، فلنذهب إليها، ونستمع إلى ما يدور فيها.. على أن نقف في الصفوف الخلفيّة، حيث التعليقات على ما يجري، وما يقال، صريحة غاية الصراحة.

كان دور صقرش قد انتهى، فصرفته المحكمة، بقيت قمْطرة، التي لا ترتاح إليها دندنة، ومنذ بدء الجلسة قال رئيسها، أكرم الرماح:

ـ اسمعي يا قمْطرة، أنتِ، كما قلت لنا، لديك أسرار القضيّة التي ننظر فيها، والمحكمة تهمّها هذه الأسرار، وستأخذ بها إذا كانت موضوعيّة، صريحة، ثابتة، لا زغل فيها ولا افتراء، وكذلك لا كتم ولا إخفاء، فهاتي من البدء.. وباختصار.

قالت قمْطرة جادّة هذه المرّة:

ـ بعد الانتهاء من كَتْب كتابنا، صقرش وأنا، طلب منّا الأرقش أن نتوغّل في الغابة، لقضاء يوم العسل، الذي لم أذق طعمه مع الأسف..

قال رئيس المحكمة:

ـ ما فاتك حصرمًا، تأكلينه عنبًا إن شاء الله.

ـ مع صقرش؟ لا وألف لا!

ـ مع مَن تشائين يا قمْطرة.

ـ على أن يكون ذلك شرعيًا.

ـ شرعيًا طبعًا، لأنّنا جميعًا مع الشرعيّة.. هاتي ما عندك.

قالت قمْطرة:

ـ يا سيّدي وتاج رأسي..

ـ تاج رأسي هذه بلاها.

ـ هذا من فرط الاحترام!

ـ نشكرك على هذا الاحترام، على أن يكون صدقك هو الاحترام.

ـ وهل أنا كذّابة، يا تاج رأسي، وجزيل الاحترام؟ هذا طعن في شرفي!

ـ أنت لا تزالين آنسة، عذراء، لم يمسسك صقرش.

ـ ولا أحد! لأنّني أشرف من الشرف.

ـ ولا أحد، لأنّك أشرف من الشرف، ادخلي في الموضوع.

ـ أنا في الموضوع يا تاج رأسي ويا . .

قاطعتها دندنة بغضب:

ـ ادخلي في الموضوع، واتركينا من الترّهات!

ـ ما معنى ترهات هذه؟ هل هذه شتيمة؟

ضحك رئيس المحكمة وقال:

ـ هذه مديح يا قمْطرة. . قولي ما عندك.

ـ سأقول ما عندي، وأنا آخذ وأعطي معك، فلماذا تحشر هذه نفسها في الموضوع؟

ـ لأنّه من اختصاصها، باعتبارها تمثّل الادعاء.

ـ وما هو الادعاء؟ وهل أنا مدّعى عليها لا سمح الله؟

وقفت دندنة وقالت:

ـ سيّدي الرئيس، هذه التي تقف أمامكم مهرّجة، تحسب نفسها في مسرح. .

تعالت الأصوات:

ـ مسرح ونصّ، ونحن نستمتع بخفّة دم قمْطرة، فدعوها تدافع عن شرفها.

صاحت قمْطرة:

ـ شرفي؟ ويلاه! أدافع عن شرفي وأنا آنسة؟ والله ثم والله، لم «يقبّل تمّي إلاّ أمّي» وهذه..

قاطعها رئيس المحكمة قائلاً:

ـ توجّهي، يا قمْطرة، بكلامك إليّ.. تدخلين في الموضوع أم لا..

ـ أدخل سيّدي.. ذهبنا، كما قلت، إلى الغابة لقضاء يوم العسل.

ـ هذه فهمناها.. وبعد؟

ـ ونحن في الطريق رأيت رئيفة ودغمش، في الغابة.. دغمش، كما هو معلوم، جنّ في هوى رئيفة، ورئيفة تريد الانتقام من الأرقش، لذلك قالت لدغمش «تريد أن أكون زوجتك؟» أجابها: «هذا ما أشتهي من الدنيا» قالت: «اقتل الأرقش!» فأجابها «سأقتله!» وفعلاً ذهب ليقتله، ومعه الشادوف، الصيّاد الخائن، عميل القلاع.. وهكذا راحا يترصّدان الأرقش، الذي كان في الغابة مع الحكيم بشير، وأطلقا عليه النار مرّتين!

تعالت الأصوات:

ـ يا للفظاعة! دغمش يقتل الأرقش، ومعه هذا الخائن الشادوف؟ الموت للاثنين! الموت للاثنين!

دقّ رئيس المحكمة بمطرقته وقال:

ـ لا تستعجلوا.. لا تستعجلوا! قمْطرة قالت، ونحن سمعنا، لكن ماذا بعد؟

قالت قمْطرة:

ـ الذي بعد، هو أنّ إطلاق النار تكرّر، فزحفت على بطني إلى أمام، ورأيت الدغمش والشادوف.. لم أهتم بدغمش، الذي سيعود إلى النبع لرؤية رئيفة، ظنًّا منهما ألاّ أحد يعرف السرّ.. وانتظرت الشادوف حتى ابتعد عن دغمش، فأطلقت عليه النار بتسديد محكم، حيث أصبته في كتفه، فارتمى أرضًا وهرب دغمش..

عادت الأصوات إلى الارتفاع:

ـ نذل وخائن، دغمش نذل وخائن، الإعدام فورًا، ودون أخذ وعطاء يا محكمة!

صاح رئيس المحكمة:

ـ الهدوء! الزموا الهدوء! المحكمة تريد أن تتثبّت..

ـ وهل تشكّ المحكمة بصدق قمْطرة؟

ـ تشكّ أو لا تشكّ ليس هو الموضوع..

ـ وما هو الموضوع إذن!؟ نحن نثق بالمحكمة، وبالأصول، لكنّنا نعرف أنّ المحاكمات تطول، وأصولها لا تنتهي.. فإلى متى نصبر على هذين الخائنين؟ سنعدمهما فورًا، لأنّنا، هنا، كلّنا محكمة!

صاح الأرقش:

ـ لا! لسنا كلّنا محكمة!

ـ كلّنا مسرح، وأنت قلت ذلك..

ـ حتى في المسرح لا يجوز أن نتصرّف عشوائيًّا.. في المسرح كلّ يؤدي الدور المرسوم له..

ـ وأين العفويّة؟

ـ العفويّة، حتى مع أخذنا بها، لا تعني التسيّب.. هذا الذي تريدون فعله تسيّب، ولن أسمح به..

ـ نريد أن نسمع رأي الحكيم بشير.

قال الحكيم بشير برصانته المعهودة:

ـ ما قاله الأرقش أقوله أنا أيضًا!

ـ نلجأ إلى التحكيم إذن.. ومن غير محكمة وقرارات.

ـ التحكيم له أصول أيضًا، وإلاّ دبّت الفوضى.. إنّنا ضدّ الفوضى، ولن نتهاون في أمرها.. أنتم عطّلتم عمل المحكمة، والمحكمة هي التي ترى ضرورة التحكيم، عندما يكون هناك فريقان مختصمان، ونحن هنا فريق واحد، لذلك تنتفي ضرورة التحكيم، ما رأي المحكمة؟

قال رئيس المحكمة:

ـ للتحكيم أصوله وشروطه، ولا يجوز اللجوء إلى التحكيم إلاّ بقرار من المحكمة، وهذا القرار يكون، حين يكون عجز في

القدرة على إصدار الحكم، وهذا العجز غير وارد، في مثل الوضع الذي نحن فيه؛ لذلك تقرّر المحكمة، بعد التشاور، رفض التحكيم أولاً، لعدم توافر أركانه؛ ومعاقبة كل من يتمرّد على المحكمة ثانياً؛ وعدم المساس بالمتهمين، لأنّ كل متهم بريء حتى تثبت إدانته، بحسب القاعدة الفقهية، ثالثاً؛ وتفويض الحرس بالقبض على كل من يخالف قرار المحكمة رابعاً وأخيراً. . قمْطرة تواصل الإدلاء بما لديها من معلومات، بعد أن عاد الهدوء، واستتبّت الأمور، ومن النقطة التي توقّفتِ عندها، أي جرح الشادوف في كتفه.

قالت قمْطرة:

قرّرت، ومنذ اللّحظة الأولى، أنّ بقاء الشادوف حيًّا فيه فائدة، ولكن كيف يمكنني الإمساك به حيًّا؟

قال رئيس المحكمة:

ـ وصقرش؟ أليس معك صقرش؟

ـ صقرش اختبأ خوفًا، «عِملْها في سرواله». . حاشاك! هل هذا زوج يصلح لزوجة مثلي!؟

ابتسمت دندنة للمرّة الأولى وقالت:

ـ لا والله لا يصلح. . أنت شجاعة يا قمْطرة!

قالت قمْطرة:

ـ ضحك شباط أخيرًا! نعيمًا يا سيادة النائب العام! شكرًا لأنّك اعترفتِ بأنّني شجاعة، وهذا يعطيني الأمل بأنّك لن تطلبي

من المحكمة أن تربط البطّيخة التي بين كتفي بحبل المشنقة!

قالت دندنة:

ـ هذه البطّيخة غير مطلوبة أصلاً يا قمْطرة.. اطمإنّي!

ـ وهل ترينني قلقة حتى أطمئنّ؟ أنا لي معك حساب، تصفيته خارج المحكمة بإذن الله.. ثم مَن أنت؟ أنا التي اقترحتك للجلوس على المقعد الذي تجلسين عليه، وأنا من يستطيع سحبه من تحتك ساعة أشاء!

ارتفع صوت أحد الحاضرين بالضحك وهو يقول:

ـ حلوة الجلسة يا جماعة، دندنة علقت بلسان قمْطرة!

دقّ رئيس المحكمة بمطرقته وقال:

ـ تأدّب أنت، وإلاّ أدّبتك بالطريقة اللازمة.

ردّ الرّجل:

ـ وما هي الطريقة اللازمة يا جناب القاضي؟ تدبّر لي تهمة كما يدّبر شرطي المرور مخالفة لأجل ٢٥ ليرة؟

ـ وتتهم شرطي المرور أيضًا؟

ـ أنا لا أتهمه، إنّه متهم خلقة.. فإذا صفَّر لسيارة مارسيدس سوداء مخالفة أكل قتلة، وإذا صفّر لسيّارة تاكسي غير مخالفة أخذ ربع المئة.. وقد سمعت بأذني الفنّان المرحوم فلمون وهبي، الذي كان يمثّل دور شرطي المرور، يقول لسيّدة جميلة تسوق سيّارة صغيرة: «صفّي على طرف الطريق» فأجابته: «لماذا أصف

وأنا غير مخالفة؟» فضحك فلمون ضحكته الشهيرة وقال «بسيطة، ندبّر لك مخالفة يا تقبريني!»

احتجّت دندنة وقالت:

ـ ما هذا «العْلاك»؟

فتعالت الأصوات:

ـ هذا ليس علاكًا، هذا حقيقة يا تقبرينا!

ـ وكيف تسمح المحكمة بحكايات مبتذلة من هذا النوع؟ للشطط حدّ، وهذا شطط بغير حدّ..

ـ بسيطة، دبّري لنا تهمة يا تقبرينا!

ـ اخرسوا.

ـ وإذا لم نخرس يا تقبرينا!

ـ أترك الكرسي وأمشي.

ـ وماذا لو تركت الكرسي ومشيت؟

صاحت دندنة:

ـ ألا تسمع هذه الغوغائيّة يا سيّدي الرئيس؟

ضحك الرئيس وقال:

ـ أسمعها يا تقبريني، ولكن ماذا أفعل مع هذه الغوغائيّة إذا كانت حقيقة!؟

ـ وتقول حقيقة؟

ـ ومسلّية أيضًا! الناس لهم ألسنة وليس معي أسلاك لربط الألسنة، أنت فتحت الباب، وأنت تلقّيت الجواب.. ومع ذلك أدعو الجميع إلى وقف هذه الكوميديا..

صاح رجل:

ـ ستقف هذه الكوميديا، أعدك بأن تقف، ولكن ليس قبل أن تسمع المحكمة هذه القصّة.. لي ابن عم طبيب شرعي في محلّة الكرنتينا، ضبط مع الشرطة فتاة قاصرة تمارس الدعارة، وكتب تقريرًا بحجزها لأنّها قاصرة، لكنّهم، بعد ساعة أخلوا سبيلها فعادت إلى الشرمطة.

قال الرئيس:

ـ أحتجّ على كلمة الشرمطة، احذفوها من المحضر، وأنت ماذا تريد أن تقول؟

قال الرجل: «أقترح أن توضع كلمة الفضيلة مكان كلمة الرذيلة حيثما وردت في محضر الجلسة».

ـ سبقناك إلى ذلك، فالحرص على سلامة الناشئة أحد واجباتنا.. نحن لدينا فضيلة وليست لدينا رذيلة، ومن يقول غير ذلك مخطئ!

تعالت الأصوات:

ـ كلامك صحيح يا مولانا!

ـ وكلمة شرمطة هذه تحال إلى مترجم محلّف، لأنّها مستوردة وغير نابعة...

ـ كلامك صحيح يا مولانا!

ـ وبناتنا اللواتي لم يبلغن سنّ الرشد محتشمات ومحصّنات تمامًا.

ـ صحيح يا مولانا!

ـ وأنت يا صاحب الحكاية التي فيها (. . .) انتهت حكايتك.

ـ هذا خطأ يا مولانا، المثل يقول «ابعص الإنسان ولا تبعص حكايته». . وأنت، عدم المؤاخذة، بعصت الحكاية وصاحبها! نرجوك، دعه يكمل.

ـ أكمل ولكن باختصار شديد. . كنت تقول بعد ساعة أخلوا سبيل القاصر (. . .)

قال الرجل:

ـ تمامًا يا مولانا. .

ـ كلمة مولانا هذه لا أريد سماعها.

ـ كما تريد يا مولانا. . أخلوا سبيل البنت القاصر، لأنّ هاتفًا (. . .) جاءهم طالبًا إطلاق سراحها. . أمّا (. . .) غير القاصرات، فإنّهنّ، كما قال لي ابن عمّي الطبيب الشرعي، يسرحن ويمرحن، لأنّ الشرطي يرتشي، والعريف يرتشي، ورئيس المخفر يرتشي، ومدير الناحية شرحه، ومساعد مدير الناحية شرحه أيضًا، و(. . .) يرتشي وهنا البليّة «لأنّه إذا فسد الملح، فبماذا نملّح؟»

تعالت الأصوات:

ـ بخراء مولانا!

صاح رئيس المحكمة:

ـ اخرسوا!

ـ وأنت، يا كاتب الضبط، اترك هذه الجلسة بلا ضبط.. العمى فضيحة! وكي لا تتواصل، الأصحّ كيلا تتناسل، الفضائح من هذه الفضيحة، ارفع الجلسة!

قال الأرقش للحكيم بشير، وهما يسيران من مقرّ المحكمة إلى مجلسهما على صخرة النبع:

ـ ما رأيك يا حكيم؟

قال الحكيم:

ـ رأيي أنّ رئيس المحكمة، تساهل كثيرًا مع الناس.. أضاع هيبة المحكمة، بعد أن أفلتت مهمّته كرئيس لها، من يديه.

قال الأرقش:

ـ لو كنت مكانه ماذا تفعل؟

ـ لو وضعوني مكانه، لأريتهم ماذا أفعل.

ـ ومَن هو رئيس المحكمة، ومَن هم الناس، أليسوا كلّهم من صنف واحد، وخرجوا إلى الغابات الاثنتين والعشرين لغرض واحد؟

ـ رأيي أنّهم كلّهم في حذاء واحد!

أي على مقاس واحد؟

ـ أنا قلت: حذاء واحد.

ـ تريد كلّهم في مركب واحد؟

ـ أنا قلت: في حذاء واحد.

ـ وما هو الحذاء الواحد؟

ـ هو الكلام الواحد.. ألم تسمع هذه الببغاويّة: صحيح يا مولانا، صحيح يا مولانا!؟

ـ الآن فهمت حكمتك يا حكيم! لكنّ الحذاء شيء، والكلمة شيء آخر، الكلمة مقدّسة والحذاء غير مقدّس، ألم تقرأ التوراة.

ـ قرأته قبل أن تخلق أنت، قراءة دقيقة.

ـ وقراءتك الدقيقة، ألم تلفتك إلى اشتعال العوسجة الملتهبة أمام موسى، وقول الرب له: «اخلع نعليك، فأنت في المكان المقدّس». كان ذلك بعد اجتياز البحر الأحمر، وبعد المسيرة إلى أمام.. فماذا فعل موسى؟ خلع نعليه طبعًا، حتى لا يدنّسا المكان المقدّس.. الحذاء، يا حكيم، يدنِّس، أمّا القول فيقدّس، وهنا الفرق الذي فاتك، بسبب الانزعاج. ليتك ضبطت أعصابك ولم تنزعج.. لكن لا بأس، كلّنا ننزعج أحيانًا، وكلّنا نفقد السيطرة على أعصابنا أحيانًا.

قال الحكيم:

ـ وماذا من هنا يا أرقش؟

ـ الكوميديا يا حكيم!

ـ أنت معها؟

ـ نعم! وبلا تردّد. . وأنت معها أيضًا، لكنّك حكيم، والحكمة تتطلّب الهدوء، لنجلس على صخرة النبع، ونترك مجالاً للصمت، نرتاح خلاله قليلاً.

جلسا، أشعلا سيكارتين، تأمّلا ماء النبع، وإذا هدهد يصيء:

وهذا حكيم يأكل الذلّ نفسه وذي حكمة تعوي وتلك تجعجع!

بكى الحكيم بشير في سكينة، أشعل سيكارة وسيكارة. . تجنّب النظر إلى الأرقش حتى لا تفضحه دموعه. قال وقد ناء تحت شعور معذّب:

ـ أنا أيضًا مع الكوميديا يا أرقش!

عانقه الأرقش بحرارة. . بحميميّة. . بأسى رجل يرى دموع رجل، وقال:

ـ أنت حكيمنا، وستبقى حكيمنا، نلجأ إلى حكمتك في الشدائد.

قال الحكيم:

ـ أنت لم تسمع الهدهد إذن!

قال الأرقش:

ـ بلى! سمعته.

ـ كان يقرّعني، قال عن الحكمة التي مثل حكمتي، إنّها: «تعوي وتجعجع!» وكان صادقًا. لقد كبرت يا أرقش، شخت وشاخت حكمتي، ولم أعد نافعًا لنفسي أو لغيري. ولكن لديّ سؤال: «لماذا كنت مسرورًا من الجلبة التي أثارها الصيّادون،

ومن تساهل رئيس المحكمة مع هؤلاء الصيّادين؟ هل هذه محكمة أم مسرح؟ أنت تنبّأت بأنّها محكمة ـ مسرح، وصحّت نبوءتك. . أعترف: في الغابة، حيث لا قانون، ولا رجال قانون، ولا تزمّت مَن يأخذ القوانين بحرفيّتها وليس بروحها، ويعرف أنّ القوانين تعتق مع الزمن، ولا بدّ من تجديدها مع تجدّد الزمن. . في الغابة هذه، ثمّة تداخل نسيجي، بين المحكمة والمسرح. ويجمل بنا أن نتفهّم حقيقة وضرورة المحكمة ـ المسرح. . أليس كذلك يا أرقش، أصدقني القول، لا تجاملني أبدًا.

قال الأرقش:

ـ نحن، في هذه الغابات، لمطاردة الذئب الأسود، وصار القاصي والداني يعرف أنّنا نرمز بالذئب الأسود إلى الفساد الأسود، وما جرى اليوم في المحكمة هو أقصى ما نطمح إليه في تعرية هذا الفساد، وقد فهم رئيس المحكمة، الصيّاد أكرم الرمّاح، اللعبة المسرحيّة، وأدرك بعمق، ما وراء هذه الحكايات الواقعيّة، الفعليّة، من فضح للفساد. . هيهات أن نتوصّل إلى مثله في مئة خطاب، أو ألف موعظة! لأنّ الخطابات السياسيّة فقدت مصداقيّتها، ولم يعد أحد يصدّقها وملّ الناس المواعظ، وصار لديهم قرف من نصائح الذين يلوكونها مأجورين، ولا يثقون في تأثيرها، لأنّها تذهب أدراج الرياح، وهذا هو السبب في أنّه أفسح لها المجال، ووافق ظاهريًّا على شطب بعض الكلمات من المحضر، لأنّها كما يزعم المتزمّتون تخدش الحياء، إلاّ أنّ هذه الكلمات لم تشطب، ولماذا تشطب إذا كانت تسمّي الأشياء بمسمّياتها الحقيقيّة، التي يتداولها الخلق جهارًا نهارًا؟ وإذا كان بعْضُهم يسمّونها كوميديا سوداء، فهي كذلك، وهي غير ذلك.

هذه كوميديا بيضاء، لأنّها لا تنطوي على اليأس والتشاؤم والإحباط، الذي تنطوي عليها الكوميديا السوداء.. وكان المتكلّمون في المحكمة، يرتجلون كلامهم ارتجالاً، فيه خبث غير خبيث، القصد منه تجنّب إسكاتهم، وكان رئيس المحكمة يضحك، وحتى دندنة، التي لم تضحك في أيّما يوم، ضحكت اليوم، وكانت قمْطرة، بذكائها المدهش، هي التي مهّدت الجوّ.. ولعلّك لاحظت أنّها لم تحتجّ، لم تقل أسكتوهم حتى أكمل كلامي، وجدت أنّ ما يقال عن الفساد.. هو أفضل وأشدّ صراحة من كل مرافعة عن الفساد، هو أفضل، وأشدّ صراحة، من كلّ مرافعة عن الفساد، وكان رئيس المحكمة يوافق على وضع ثلاث نقاط، في بعض الأماكن وبعض المسمّيات، لإدراكه أنّ الشعب غير منقوص الذكاء، وأنّه يعرف دلالة النقاط في المواقف والأسماء.

قال الحكيم:

ـ أيقنت، وآمنت، بأنّ الغطاء على مواضع الفساد، قد كشف، وكان أصحابه، الذين يستجهلون الشعب، يظنّون أنّه لن يكشف، وأنّ التوريات بين الفضيلة والرذيلة توريات شديدة الإيحاء.. وقد خفت عليك من ذلك الصيّاد الأرعن، الذي وجّه إليك بندقيّته، وكدت أصيح: «أمسكوه، خلّصوا عليه، انتزعوا بارودته، احموا الأرقش» إلاّ أنّك، برباطة جأش، عرفت كيف تحاوره وتخيفه، وتجعله يتراجع ويندم على ما فعل.

قال الأرقش:

ـ أنا أيضًا لي أخطائي، كما لكلّ الناس أخطاؤهم. ونحن

بشر، والبشر يخطئون ويصيبون، وقد أخطأت مع رئيفة، جعلتها تنهار عصبيًّا، تلجأ إليك وتضع رأسها على ركبتك وتبكي، والبكاء مفيد مع مثل هذه التشنّجات، وقد أفادها بكاؤها. . إنّ الخطأ يتطلّب ثمنه، وأنا دفعت ثمن خطئي، وبعد أن كانت رئيفة تحبّني، باتت تكرهني، لذلك تآمرت مع دغمش على قتلي، ولذلك أطلقت عليّ النار، وخافت من الإعدام. . لكن رئيفة لن تعدم، كل ما فعلته كان سببه الحبّ، والحبّ أعمى كما يقولون، ومن غير الإنصاف أن نأخذها بجريرة عمى حبّها. . سنرى كيف تتطوّر الأمور، ونسعى كيلا تعدم. .

سأل الحكيم بشير:

ـ تظنّ، يا أرقش، أنّها، وسط هذا الجوّ الملتهب والأضغان الدفينة والغيرة والحسد، يمكن أن تنجو من الإعدام!؟ افعل شيئًا لأجلها كما وعدتها.

ـ وهل تحبّها يا حكيم؟

ـ أحبّها يا أرقش، أحبّها وأشتهيها، وإذا نجت سأتزوّجها ما دامت هي التي اقترحت عليّ الزواج بها. . مرّة أخرى أرجوك، افعل شيئًا لأجلها.

ـ لقد فعلت يا حكيم، فعلت لأجلك وأجلها، ولأجل الوفاء بوعدي. . وإلاّ لماذا انتزعت موافقة الأكثريّة، على أن يكون العفو منوطًا بك وحدك!؟

تذكّر الحكيم بشير أنّ الأرقش قال له يومًا: «الروح يا حكيم لا تشيخ، تبقى هي كما كانت منذ الولادة، جديدة طموحة، إلى أن يكون الموت، وعندئذ ينتهي كل شيء.. أمّا الجسد، فإنّه بخلاف الروح، يهرم، يشيخ، وحتى قبل الهرم والشيخوخة، يعجز، عند بعض الناس، عن تلبية طموحات الروح في عمر مبكّر!»

ابتسم الحكيم بشير وقال:

ـ ولكن هذه فلسفة، نعيش حقيقتها، دون أن نفطن إلى حقيقتها! الروح لا تشيخ، لا تكفّ عن الاشتهاء، عن الطموح في هذا الاشتهاء، والرغبة في كل أشياء الحياة، إلاّ أنّ الجسد يخذلها في تلبية الطموح إلى هذه الأشياء.. لماذا تقول لي هذا؟

قال الأرقش:

ـ لأنّني، وأنا في الخمسين، بدأت أحسّ بعجز جسدي عن تلبية طموحات روحي، وهذا ما يبعث على الأسى!

ـ ليتك، يا أرقش، لم تلفتني إلى هذا.. إنّه اكتشاف غير مكتشف، لكنّه، رغم ذلك، يبقى اكتشافًا جديرًا بأن نعيه، ونتقبّل الحسرة فيه. آه.. من وهن الجسد، في طلب اللّذّة خصوصًا،

ومعاشرة المرأة عمومًا.. إنّني في الستّين، من عمري، وأحسّ أكثر منك بأنّ جسدي بدأ يقصر عن الوفاء برغبات روحي.

ضحك الأرقش وقال:

ـ البركة فيك يا حكيم، واللعنة عليّ لأنّني أيقظت فيك، بغير قصد، نزعة كنت تعيشها، دون أن تكترث بها.. أمّا من ناحية المرأة، فإنّ الاختلاف كبير بينها وبين الرجل.. إنّها، حتى وهي في الخامسة والأربعين من عمرها، تبدأ تدريجيًا تفقد رغبتها في الجنس، وفي الستّين تكره الجماع مع الرجل، سواء كان زوجها أم عشيقها.. أمّا الرّجل فيبقى مدّة أطول، يبقى إلى ما بعد الثمانين، والرغبة الجنسيّة تتّقد فيه، تكويه كالنار الحارقة!

هذا الحديث، بين الأرقش والحكيم بشير، كان قديمًا، كان هاجعًا، كان منسيًّا.. والليلة تجدّد ما كان قديمًا، استيقظ ما كان هاجعًا! والسبب، في كلّ ذلك، كانت رئيفة، وقضيّة رئيفة، والزواج من رئيفة. وهذا ما جعل النوم يجفوه، فأغفى بعد منتصف اللّيل، وأفاق قبل شروق الشمس، وجلس وحيدًا على صخرة النبع، تتفتّق في ذاته الأفكار وتتوالد، فيروح يجذّف في بُحرانه، بعيدًا في مركب الذكريات، مستغربًا أن تكون الوقائع، الآن، غير التي كانت وقت سماعها من قبل.. وعندما جاء الأرقش ليصطحبه إلى المحكمة، ألفاه حزينًا، جزعًا، مشتّتًا، وذلك بسبب قضيّة العفو، التي عهدوا بها إليه، فتقبّلها على كره، وقرّر في هذا الصباح أن يعتذر عنها، فسأله الأرقش مندهشًا:

ـ لماذا يا حكيم؟ وأيّ شيء كدّرك، وجعلك تقرّر الاعتذار؟

قال الحكيم:

ـ العفو منوط، أمره، بالرئيس، وأنا لست رئيساً.

ـ هنا.. أنت الرئيس. والرئيس في الغابة غير الرئيس في بلد من البلدان.

ـ المسؤوليّة التي وضعتم أمانتها في عنقي، لا قدرة لي على تحمّلها.

ـ من أيّ ناحية؟

ـ من كلّ النواحي!

ـ لا! ليس من كل النواحي، بل من ناحية واحدة هي رئيفة.. أنت يا حكيم، لك سريرة ناصعة البياض، وذمّة أمينة، مؤتمنة، في صفاء نور الصباح أيّام الربيع، وتخشى على سريرتك من إبطان ما لا يُعلن، وعلى ذمّتك من أن يخدشها انحياز، ولأنّك تحبّ رئيفة، تشفق على نفسك من الهوى، الذي قد يؤدّي، بسبب هذا الإشفاق، إلى التحيّز في الحكم على الأمور.. أنت تخاف أن تقرّر، من خلال الصراع بين عقلك وقلبك، الميل إلى قلبك وما فيه من عاطفة تجاه رئيفة، فهل تحبّ رئيفة؟ وهل تحبّك رئيفة؟

قال الحكيم بشير:

ـ أين أنا من الحبّ في مثل هذه السنّ؟

قال الأرقش:

ـ الحب الكبير، الباقي، الكاوي، يكون في مثل هذه السن!

حبّ أيّام الشباب إلى ذبول، أكثر الأحيان.. أمّا حبّ ما بعد الخمسين إلى انتعاش أكثر.

قال الحكيم:

ـ لذلك قالوا: «جَهْلة الستّين»! هل تريدني، بعد الستّين، أن أجهل؟

ـ الجهل، وهو اندفاعة المحبّ نحو حبيبه، ليس له علاقة بالإرادة، ولا باتخاذ القرارات، إنّه نعمة سماء أو نقمتها، وفي مثل حالك مع رئيفة نعمة سماء، فلا تجحدها. وإلى أن ترفع إليك الأحكام بحقّ المدانين، لتبتّ فيها، يفرجها ربّك.. فقد يصل إليك الحكم على رئيفة، وقد لا يصل أبدًا.

ـ كيف لا يصل أبدًا، إذا ما كان هناك حكم عليها؟

ـ أنت، في هذه الحال، قادر.. والعفو عند المقدرة.

ـ لا! لا يمكن، لن ألوّث ضميري بشائبة، ولن أعفو عن رئيفة، وأثبت الحكم على غيرها. هذا مستحيل.

قال الأرقش، يعزّ عليّ، بل أخاف، أن أوجّه إليك نصيحة، وأنت من ينصح الناس، لكنّني هذه المرّة سأفعل، طامعًا بحلمك:

ـ أنت، يا حكيم، تستعجل الأمور، وقد عهدتك تتأنّى فيها، نصيحتي ألاّ تستعجل.. هل تريد أن ترى رئيفة؟

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ ممكن طبعًا، وبلا أيّ حرج.

فكّر الحكيم وقال:

ـ لا! لا أريد أن أراها!

ـ هل هذا بسبب الحبّ؟ وهل تخاف الحبّ إلى هذا الحدّ؟ وماذا يبقى لنا إذا انتفى حبّنا؟ تأمّل الدنيا بلا حبّ، هل كانت تطاق؟ سترى رئيفة، وهي تريد أن تراك، وأنا أريد ذلك أيضًا.. تعال!

انقاد الحكيم بشير لتعليمات الأرقش كما ينقاد طفلٌ لأبيه، أو المريض للطبيب المعالج، مستغربًا في ذاته هذا الانقياد للأرقش، في موضوع ما كان يخطر له يومًا على بال، فالحبّ الذي يستشعره كان حبًّا يليق بالشباب، وهذا الحبّ قد يكون نزوة من رئيفة، أو نكاية، تتفنّن بها وتجيد، تحت وطأة الظروف المحيطة بها، الاختباء وراءها، أو استخدامها ورقة رابحة، في لعبة خداع اسمها البوكر، تلعب فيها بكلّ رصيدها، دون خوف من خسارة، لأنّها، في الوضع الذي هي فيه، خاسرة كلّ شيء.. أمّا هو، الحكيم المشهور بحكمته، فإنّه سيكون الخاسر الأكبر، فيفقد سمعته، حكمته، رصانته، احترام الناس له، في سبيل إشباع شهوة عابرة.. شهوة؟ لا! هناك إشفاق أيضًا، والإشفاق غير الحبّ، رغم أنّه يؤدّي إلى الحبّ أحيانًا.. لكنّه جاء الآن، انقاد للأرقش. وربّما كان الأرقش، في سريرته، يضحك منه، يستخفّ بعقله، لأنّه يجري وراء حبّ فتاة بعمر ابنته، عافها الآخرون، تخلّصوا منها، ويرغب الأرقش بدوره أن يتخلّص منها.

الحبّ، في الكهولة، خارق حتى العظم، ومعذّب للروح في أعمق قراراتها، ومثير للغيرة حدّ المرض، وباعث على الوسواس

القهري، فيما إذا كانت التي يحبّها تحبّه بدورها، ووفيّة له مثل وفائه لها، أو أنّها تخونه مع الآخرين، الأكثر وسامة، والأنضر شبابًا. وحبّ الحكيم بشير لرئيفة من هذا النوع، يفعم القلب راحة وعذابًا في آن، يشبع الجسد، حتى الارتواء، من الجسد الآخر، الفتي، النضر، الممشوق القوام، العذب المذاق، المكوّر النهدين، الصلب ملمسهما، وهذا ما يجدّد الشباب، حتى في الكهولة، ظاهريًّا فقط، ويدمي الفؤاد في محاولات التدليل والإرضاء.

تعود أدراجك يا حكيم بشير، أم تبقى منتظرًا اللقاء المرتقب؟ تنتصر على شهوتك، أم تذعن لها فتنتصر هي عليك؟ تحتفظ بحكمتك أم تجنّ مثل دغمش؟ إنّها مغامرة، ووجودك في هذه الغابة مغامرة، والإنسان الشجاع على موعد دائم مع المغامرة، وأنت لا تنقصك الشجاعة لتكون مغامرًا.. أم أنّ مغامرتك الجديدة هذه، ستورثك الندم، حين لا ينفع الندم!؟

عاد الأرقش إليه. طالت غيبته.. لكنّه عاد إليه! وبعودة الأرقش لم يبق مجال للتردّد: نعم أم لا؟ وقال الحكيم في نفسه: «نعم!» من غير أن يُظهر، أو يصارح، بما عانى وهو ينتظر هذه العودة. ولمّا وصلا إلى ما يشبه الخيمة، قال له الأرقش:

ـ كن، يا حكيم، لطيفًا وحذرًا في وقت واحد.. أنت ورئيفة، وحدكما في هذه الخيمة، دون حراسة أو رقابة، فإذا أفلتت منك، خوفًا أو رغبة في الفرار، نكون، أنت وأنا، المسؤولين عن فرارها.

سأل الحكيم:

ـ وهل عرفتْ منك، أنّها ستلتقي بي، في هذه الخيمة بالذات؟ وماذا كانت ردّة فعلها؟

ـ طارت فرحًا!

ـ وماذا قلت لها حتى طارت فرحًا؟

ـ لم أقل شيئًا.. تركت ذلك لحسن تصرّفك معها.. إلى اللقاء بعد ساعتين.

ـ أين؟

ـ هنا طبعًا!

ـ ألن تذهب إلى المحكمة؟

قال الأرقش:

ـ آه يا حكيم! ما أطيب قلبك، وأقلّ تجاربك.. ماذا لو تطفّل أحد عليكما؟ وماذا لو جاء صيّاد، ودخل الخيمة عليكما؟ كل شيء تمّ بالسرّ، وعليّ أن أحمي هذا السرّ، وأحافظ عليه.. أدخل.. وكن واثقًا أنّني بعيد قريب منكما!

دخل الحكيم الخيمة، أغلق الباب، أو أرخى الستارة، وتقدّم نحو رئيفة مفتوح الذراعين.. نهضت رئيفة، ارتمت بين ذراعيه، قبّلته في وجنتيه وقالت:

ـ جئت، يا حبيبي، يا حكيمي، مودّعًا؟ وهل اقتربت لحظة الإعدام؟ شكرًا على كلّ حال: فأن أودّعك، يعني هذا أنّني سأموت مرتاحة.

بهت الحكيم، ارتبك، مسح بكفّيه دموعها، قال لها:

ـ مجنونة أنت؟ عن أيّ إعدام، وأيّ وداع تتحدّثين؟

ـ عن الذي يقوله قلبي، وقلبي كان دليلي دائمًا.

ـ ألم يقل لك الأرقش شيئًا؟

نبرت:

ـ أنا لا أصدّق الأرقش حتى لو قال.. هذا إنسان قلبه من حجر!

ـ لكنّه هو الذي دبّر هذا اللقاء، وبسرِّيَّة تامّة.

ـ لأنّه يعرف أنّني سأعدم بعد قليل، أو غدًا على أبعد تقدير.

قالت ذلك وعادت إلى العناق والبكاء، حتى داخل الشكّ قلب الحكيم، فتساءل: «معقول أن يعملها الأرقش معي!؟» وردّ على تساؤله بالنفي، مستحيل أن يخون الأرقش. إنّه وعد وسَيَفي بوعده، أنا واثق من ذلك.

سألته وقد جلسا:

ـ بماذا تفكّر؟

ـ بالأرقش.

ـ اللعنة على الأرقش!

ـ لكنّه وعد.

ـ وسينكث بوعده.

ـ هذا مستحيل! صدّقيني.. الأرقش لا يحقد عليك، لم يتجاوب مع حبّك، لأنّه مشغول عن الحبّ بما هو أهمّ.

ـ وهل هناك أهمّ من الحبّ؟

ـ في رأيي لا ، ولكن في رأي الأرقش نعم!

ـ وهل تحبّني أنت؟

ـ وتسألين!؟ أنتِ التي عرضت عليّ الزواج، فهل لا تزالين عند وعدك؟

ـ وما نفع الوعود، بعد أن قضي الأمر؟

ـ ألا تثقين بي؟

ـ ولماذا أنا بين ذراعيك؟

ـ ثقي بالأرقش إذن. . إنّه وَعَد، وسَيَفي بوعده، كوني مطمئنّة.

ـ أرغب في أن أطمئنّ، ولكن ماذا بيد الأرقش، حتى لو كان صادقًا؟

ـ بيده الكثير، صدّقيني، وفي المحكمة سيسقط حقّه الشخصي.

ـ والحقّ العام؟

ـ هذا ما يعرف هو كيف يتدبّره. . إنّه يخطّط، ولا يتحدّث عن خططه مسبقًا.

ـ أنا أثق بك، ولأنّك، أنت، تثق به، فإنّني سأتعلّق بالأمل. وآمل ألاّ يخيب! لكنّه، هو، لم يقل لي كلمة واحدة مطمئنة. . فلماذا؟ هل نسي حبّي له؟ هل نسي كم انتظرته؟ وكيف دفعني لارتكاب ما ارتكبته؟ لقد يئست منه، يئست من حبّه لي، فهل

تعرف ما تفعل المرأة مع حبيبها إذا خان حبّها؟ تخرج من عقلها. وأنا خرجت من عقلي، فتآمرت مع دغمش على قتله؛ ولمّا لم يوفّق، صمّمت على قتله فأطلقت النار عليه.. كنت راغبة بالموت، بالاختفاء من الدنيا، إلاّ أنّني من حلاوة الروح تعلّقت بك.. آسفة على ما فعلته بك، أنت إنسان طيّب، طيّب ورائع، وليتني تركتك تعانقني، ولم أدفعك إلى حوض ماء النبع.. سامحني، أرجوك سامحني، ولنعوّض ما فات، خذني بين ذراعيك، وإذا كان هناك مأذون فلنتزوّج الآن.. وعندئذ يسهل عليّ الموت، إذا كان لا بدّ منه.. ماذا قال لك الأرقش؟

ـ قال لي كن لطيفًا معها، فهي تحبّك بصدق وإخلاص، وأنا سعيد بهذا، فاعتمدا عليّ، ولا تباليا بشيء.. الأرقش، حين يعد، يفي بوعده.

ـ هو قال هذا؟

ـ وزاد، فقال: سأحضر عرسكما.

ـ أنا لا أصدّق.. ولكن لا. عليّ أن أصدّق. فهل أصدّق؟

احتواها الحكيم بين ذراعيه وقال:

ـ صدّقي يا رئيفة، يا حبيبتي، صدّقي.. زيارتي لك للقاء وليس للفراق، وكي تعرفي دهاء الأرقش جيّدًا، سأقول لك خبرًا مفرحًا.. عند بدء المحاكمة، وقف الأرقش أمام جميع الحاضرين وقال: «إنّني أرشّح الحكيم بشير، ليكون بيده، وفي عهدته، قضيّة العفو والإثبات، فمن يوافق يرفع يده.. ورفعت الأكثريّة أيديها».

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ ما يعنيه معروف، فقد صار بإمكاني، بحسب قانون الغابة، أن أنظر في الأحكام التي ترفعها إليّ المحكمة، وخصوصًا قضايا الإعدام، فأعفو، وفقًا لوجداني، عمّن أشاء، وأثبت الحكم على من أشاء.

سألته رئيفة:

ـ وهل ستعفو عنّي إذا حكمت بالإعدام؟

ـ أنت لن تحكمي بالإعدام، لكنّ الأرقش، ببعد نظره، احتاط للأمر. . فعل هذا، إذا لم تخنّي حكمتي، لأجلك أنت بالذّات. جعل العفو من شأني وحدي، وأنا مطلق الصلاحيّة في ذلك.

ـ وهل ستعفو عنّي؟

ـ هذا ما أراده الأرقش، وما أراده سيكون، دون أن أفقد نزاهتي، لأنّ قلبكِ أبيض، ونيّتكِ صافية، وأنت بريئة، وما فعلته كان دافعه الحبّ. . فماذا يقول عنّا الحبّ إذا أدنّاكِ؟ وماذا يقول المحبّون؟ وماذا أقول أنا لنفسي. .؟ هناك شبهة في أنّك تعمّدت التآمر عن سابق تصوّر وتصميم، وشبهة في أنّك تعمّدت قتل الأرقش عن سابق تصوّر وتصميم، والقاعدة الفقهيّة تقول: «ادرأوا الحدود بالشبهات». هناك صوت طلق ناري، وهذه إشارة تعني أنّ المقابلة انتهت، تعالي أودّعك، تعالي أضمّك إلى صدري. . وإلى اللقاء.

قالت رئيفة وهي تعانق الحكيم بشير:

ـ كم أنا سعيدة بهذه الزيارة، بهذا اللقاء، وكم سأنام اليوم بعمق، بعد أن أضناني طول السهر.. مع السلامة يا حبيبي، وليحفظك الله، ويحفظ الأرقش، الذي أحمّلك سلامي إليه.

خرج الحكيم بشير من الخيمة منشرحًا، راضيًا كل الرضى، لأنّه استطاع أن يصلح ما بين رئيفة والأرقش، ولأنّ رئيفة التي كسا الشحوب الجميل وجهها، ونحف جسمها، ستنام الآن بعمق كما قالت، وبذلك تستردّ بعضًا من عافيتها، إلاّ أنّ رئيفة، ما إن عادت إلى مكان التوقيف، حتى عادتها الهواجس، منبثقة من ألف ثقب في رأسها، وهذا ما حزره الأرقش، الذي سرّ لسرور الحكيم ولحسن تصرّفه، وحديثه المُريح مع رئيفة، فقال:

ـ هناك نوعان من البشر: المرهفون والبليدون، ولسوء حظّ رئيفة أنّها من النوع الأوّل، لذلك لن تنام ولن ترتاح، أمّا النوع الثاني ـ البليد، مثل دغمش وغيره، فإنّهم ينامون، ما إن يضعوا رأسهم على وسادة، أو حتى على حجر.. أصحاب الوجدان، الذين هم حسّاسون غالبًا، ويشعرون بالمسؤوليّة، فإنّهم قلّما ينامون، قلّما يستريحون، لأنّهم، في النهار والليل، شاغلهم الشاغل القيام بمسؤوليّاتهم.. هكذا هي حياة البشر.

أضاف الأرقش:

ـ حدّثني رجل، يا حكيم، أنّ زوجته البليدة تنام، وهو يمارس الجنس معها.

قال الحكيم:

ـ هذه نكتة!

قال الأرقش:

ـ النكات أيضًا لها حظّ من واقع! إنّ ما يتداوله الناس من نكات، لا يخلو من مرارة، ومن إيلام للذين ينكّتون عليهم. . وحتى النكات البذيئة، تعبّر، غالبًا، عن إحساس بالحرمان. هناك جوع البطن، وجوع الجسد، وكلاهما فيه عذاب للروح، أم أنّ لك رأيًا آخر؟

ـ عن ماذا كنّا نتكلّم؟

ـ عن عدد حبّات الرمل على الشاطئ!

ـ هذه تورية موفّقة. . أنت تفكّر بعدد حبّات الرّمل، وأنا أفكّر بعدد النجوم!

ـ هذا لأنّك تفكّر برئيفة، هل كانت حارّة أم باردة بين ذراعيك؟

ـ ولماذا تسأل؟ هل هذه سخرية من «جَهْلة الستّين؟» نعم يا أرقش، جهلة الستّين، بعد هذا اللقاء، صارت أَحَدّ، أبعث على التفكير الممضّ. . لقد انجرفت مع تيّار الحبّ، «ما كنت أحسبني، كما قال المتنبّي، أحيا إلى زمن» أنجرف فيه مع تيّار القلب. . اضحك ما شئت، فما أقول يبعث على الضحك، هنيئًا لك، هنيئًا لأنّ قلبك من حجر، كما قالت رئيفة!

ـ مخطئة رئيفة، فقلبي ليس من حجر، وإذا كان كذلك، دون أن أدري، فإنّ المسؤول عن تحجّره هو الزمن. . أحيانًا، في وقت التعب، أحسد أجدادنا وآباءنا، أحسدهم على جهلهم، على قناعتهم، على استكانتهم للواقع المزري الذي كانوا راضين به،

إلاّ أنّ هذا شعور عابر، شعور رجل إنسان أنهكته المتاعب، فإذا زال التعب، أو انزاح ولو قليلاً، فإنّني أتّهم أجدادنا وآباءنا بالتقصير، بالبلادة بالخمول، أقول عنهم إنّهم كانوا في الخاملين، في العَجَزة، في القَعَدة، فلو ناضلوا، ولو قليلاً، لأسهموا في تخفيف هذا البؤس الذي نرزح تحته.. لا بأس! «اذكروا محاسن موتاكم»، ترحّموا عليهم، وأنت وأنا وغيرنا نترحّم، وهل في وسعنا ألاّ نترحّم!؟ قل لي يا حكيم، هل كانت رئيفة باردة أم حارّة؟

ـ وماذا يعنيك من هذا الأمر؟

ـ الحشريّة، أنا بطبعي حشري، أرغب في معرفة كلّ شيء؟

قال الحكيم:

ـ وإذا كان الآخرون حشريين، ورغبوا في معرفة أمور كهذه، تجري بينك وبين زوجتك في الفراش، ماذا تقول لهم؟

ـ ألعنهم!

ـ أنا لا ألعنك، لمعرفتي أنّك لن تلعنني، وأكثر من ذلك، لمعرفتي أنّك تسأل لاكتشاف حالة نفسيّة قد تفيدك في يوم من الأيّام.

قال الأرقش:

ـ أنت، يا حكيم، لا ينقصك الذكاء، ولا تنقصك الفراسة، وما تقوله عن الرغبة في اكتشاف حالة نفسيّة في محلّه تمامًا.. لكنّني لم أصل في العمر إلى المرحلة التي وصل إليها السلطان عبد الحميد..

ـ وما دخل السلطان عبد الحميد في الذي نحن فيه؟

ـ دَخَله، يا حكيم، أنّه كان يملك نساء بعدد أيّام السنة، ولا يدخل عليهنّ، إلاّ العبيد المخصيين، وفي يوم تجرّأ ضابط شابّ، مغامر، فدخل الحريم، وفي يده اليمنى خنجر، وفي اليسرى كيس نقود، وقد أحدث دخوله ضجّة بين النساء، وكاد ينفضح أمره، لولا تدخّل امرأة عاقلة من بينهنّ، واقتراحها بأن ينام الشابّ ليلة مع كلّ امرأة، وبذلك ينتظم الدور، وتنال كل واحدة حظّها الجنسي معه.

قال الحكيم:

ـ هذا اقتراح جيّد، وكان هذا المغامر ناجحًا محظوظًا، ركب، على لغة صقرش زوج قمْطرة، كل النساء، وخرج غانمًا سالمًا.

قال الأرقش:

ـ لا يا حكيم، خرج هذا الشابّ من الحريم إلى المشنقة.

ـ افتضح أمره؟

ـ لا! لم يفتضح أمره، فقد كان حذرًا، وكانت نساء الحريم حريصات عليه، لكنّه، بعد عام، وبعد أن مارس الجنس مع نساء الحريم الذين هنّ بعدد أيّام العام، كان عليه أن يبدأ معهنّ من جديد، مع دخول العام الجديد، وهذا ما لم يقدر عليه. فقد كانت بين النساءِ العذراواتُ، وكانت بينهنّ المحروماتُ، لأنّ السلطان عبد الحميد إذا نام مع واحدة منهنّ ليلة في العام، كانت تسمّى «إقبال لار» أي أنّ السلطان أقبل عليها. المهمّ أنّ الشاب

المغامر، مع منتصف العام التالي، كان قد اهترأ، انتلف، ولم يعد قادرًا على تحمّل حياة، الموت أرحم منها، فاختار الموت، وخرج من الحريم مستسلمًا، ومن بابه إلى المشنقة فمات واستراح.

قال الحكيم:

ـ حكايتك مشوّقة يا أرقش، فما المقصود منها؟

ـ المقصود هو الظلم الذي كان يلحق بالعذارى، وهنّ يحملن كهدايا إلى السلطان، فيدخلن الحريم ويصبحن من المنسيّات، هذا أوّلاً . .

ـ وثانيًا؟

ـ تقدّم العمر بالسلطان، ولحقه العجز الذي يلحق بالكهول، ولم تنفع معه العقاقير، فاستدعى رئيس خصيانه للاستشارة، وبعد أيّام من التفكير، عاد رئيس الخصيان متهلّلاً: فقد اكتشف الوسيلة الناجعة، وملخّصها أنّه فتح ثقبًا في جدار غرفة، وتوسّل إلى السلطان أن يضع عينه على الثقب، فلمّا وضعها السلطان رأى مشهدًا عجبًا: رجلاً وامرأة يمارسان الجنس، وبحركات مثيرة، ومع طول المشهد، استثار السلطان جنسيًا، ونجح مع إحدى محظياته!

قال الحكيم:

ـ القصد يا أرقش؟

قال الأرقش:

ـ إنّني لست السلطان عبد الحميد، ولا أحتاج، في مثل عمري، إلى استثارة، أو ثقب في جدار أو في خيمة، إنّما سؤالي عمّا إذا كانت رئيفة حارّة أو باردة، مردّه إلى معرفة حال المرأة، وهي تعرف أنّها ذاهبة إلى الإعدام!.. هيّا نستعجل لنلحق بالمحكمة.

ـ ٨ ـ

كانت قمْطرة قد انتهت من الإدلاء بكلّ ما لديها من معلومات، وقد تعالت الهتافات لها، عندما فصّلت كيف أصابت الخائن، عميل القلاع، الشادوف في كتفه، وغامرت بحياتها للقبض عليه حيًّا، وسوقه إلى المحكمة، ليمثل أمامها عندما يأتي دوره. .

قال رئيس المحكمة:

ـ أنت، أيّتها الصيّادة الجريئة، الرائعة، قمت بعمل يعجز عنه الرّجال، وقد هداك ذكاؤك الفطري، وتجاربك الغنيّة، ومغامراتك النادرة، إلى اكتشاف ما لا يكتشف، لولا وجودك. . ومع أنّك شغلت المحكمة طويلاً بأحجية النون والراء، وأثرت من التعليقات ما جعل من هذه المحكمة مسرحًا، إلاّ أنّك، ودون مبالغة، كنت قردًا ملفلفًا كما يقول المثل.

احتجّت قمْطرة على وصفها بالقرد الملفلف قائلة:

ـ أهذا جزائي منك يا محكمة؟ والله ثمّ والله، ثم ورأسك يا رئيس محكمتنا الموقّرة، لولا احترامي لك، واحتشامي أمام المستشارين ووكيلة الادعاء العزيزة دندنة، لفرشت لكم الملاية!

قال رئيس المحكمة أكرم الرمّاح:

ـ تفرشين لنا الملاية؟ أنا لم أسمع بعبارة «فرش الملاية» هذه، وأحذّرك من شتمنا إذا كان هناك شتم!

تطوّع صيّاد مصري نَصَف، لشرح المقصود بفرش الملاية فقال:

ـ سيّدي الرئيس! هذه عبارة سوقيّة لا تقال عندنا، في مصر، في أحياء راقية، مثل غاردن سيتي والزمالك وغيرهما. .

ـ اختصر! أين تقال إذن؟

ـ في حيّ شبرا، والحلميّة، وشارع عماد الدين، وبيوت المقابر، المكتظّة بالسكّان من الدراويش والمعدمين والشحّادين والفرّاشين وماسحي الأحذية، وأصحاب العاهات، الصحيحة والكاذبة. . ألم تقرأ سيّدي رواية «زقاق المدقّ» لنجيب محفوظ؟

قال الرئيس:

ـ لديكم، في قاهرة المعزّ، مَن ينامون في المقابر؟ ومن يصنعون العاهات.

ـ إيه يا بك!؟ تسأل؟ وهل هذا سؤال يُسأل؟ يا خبر بفلوس بكرة يصير بلّوشة! وحياة رأسك يا بِك، المقابر لم تعد تسع الزبائن الذين يدفعون خلو رجل فيها. . أنا يا باشا. .

قاطعه رئيس المحكمة:

ـ ما هو اسمك، ومن أيّ عام أنت في الغابة؟

ـ اسمي محمّدين يا باشا، وأنا في الغابات من عامين. .

ـ باشا هذه بلاها، نحن هنا زملاء، لا باشا ولا بيك ولا حتى أفندي! ما معنى أفرش لك الملاية؟

قال صيّاد:

ـ أنا عوضين، من مصر المحروسة، أم الدنيا، ولي عام واحد في الغابة.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أنا أحتجّ على ما يقوله محمّدين، هذا قاعد يلبّخ على مصر، على الطالع والنازل.

قال رئيس المحكمة:

ـ نحن مثلك يا عوضين، نعزّ مصر جدًّا، ولا نسمح لأحد أن يقول عنها كلمة سوء، والمسألة كلّها بسيطة، تتعلّق بعبارة «أفرش لك الملاية» هل تعرف معناها؟

ـ أعرفه طبعًا . . المرأة السليطة، إذا أرادت أن تردح لامرأة سليطة مثلها، تخلع ملايتها، تفرشها، وتهدّد بخلع ملابسها عليها، وبعد ذلك يبدأ الردح!

قال رئيس المحكمة:

ـ اسمعي يا قمْطرة! نحن مدحناك لأنّك تستحقّين المديح، لكنّك أوقعت المحكمة في إشكاليّة «فرش الملاية» التي تكشّفت عن تفاهة، عن ردح بين النساء لا معنى له، ولا علاقة للمحكمة به، لذلك توقّفي عن هذه الألاعيب وإلاّ أخرجناك من هذا المكان!

ردّت قمْطرة:

ـ توضيح مسألة «فرش الملاية» أفادنا كثيرًا، عرَّفنا بإخوتنا من

الصيّادين المصريين، الذين لم نكن نعرفهم، وأتاح لنا أن نقول كلامًا جميلاً عن الشقيقة مصر، أي أنّه حرّك الجوّ، فارتاحت أعصاب هيئة المحكمة الموقّرة، ونراخت أعصاب سيّدتنا دندنة المتوتّرة أبدًا، والأهمّ من كلّ ذلك أنّها أرضت الأرقش، الذي كان مشغولاً بالتعريص، بين حكيمنا الذي أضاع حكمته بسبب الحبّ، وبين رئيفة المتهمة بالخيانة، والمرشّحة للإعدام بإذن الله. .

قاطعها رئيس المحكمة قائلاً:

ـ ابلعي لسانك السليط وإلاّ قصصته. . العمى! هنا محكمة أم مسرح؟

تعالت الأصوات، كجوقة واحدة:

ـ مسرح! مسرح!

ـ وحتى لو كان مسرحًا، أو محكمة ـ مسرح كما أسماها الأرقش، فلا يجوز استغلالها للقذف بحقّ الناس. . عن أيّ تعريص تتحدّثين يا عائبة؟

ردحت قمْطرة بصوت يشبه صوت كلب مسعور:

ـ أنا عائبة يا محكمة؟ أنا التي أشرف من الشرف نفسه، أطلع عائبة؟ يا أسفي على عمري الذي انقضى ولا أزال آنسة!

تعالت الأصوات:

ـ والنون والرّاء يا قمْطرة؟ وصقرش الذي تزوّجك؟ ألم يصرْ ما يصير بينكما؟

ـ لم يصر وحياة شواربكم، كنت عذراء، ولا أزال عذراء، وأخاف أن أبقى عذراء حتى أموت! هل يجوز هذا يا محكمة؟ وهل هذا جزاء كل الذي فعلته؟

ضحك رئيس المحكمة وقال:

ـ أنت تستحقّين الكثير يا قمْطرة، وقد تزوّجت صقرش زواجًا شرعيًّا، لكن ظروف مكافحة الذئب الأسود، حالت بينكما وبين الدخلة في هذه الغابة، وهذه الظروف زالت الآن، أو تحسّنت، وصار في وسعكما قضاء شهر عسل لا يوم عسل واحد فقط.. وهكذا تكون المحكمة قد أنصفتك يا قمْطرة، وغدًا تذهبين إلى الغابة آنسة وتعودين منها سيّدة، فما قولك؟

ـ قولي أذهب مع مَن؟

ـ مع صقرش طبعًا!

ـ صقرش هذا لا ينفع، بين فخذيه، عدم المؤاخذة، تابوت!

ـ ماذا!؟

ـ تابوت!

تعالت الأصوات:

ـ لم نفهم! ماذا تقصدين بالتابوت يا قمْطرة؟؟ نوّرينا!

ـ يعني أنّ صقرش لا ينفع للسيف أو للضيف... العوض بسلامتكم.

ـ وبسلامتك يا عذراءنا الجميلة.. لا بدّ من وجود فدائي بيننا.. هل من فدائي يا شباب!

ـ كلّنا، في هذه المسألة فدائيّون، اختاري فدائيًّا من بيننا!

ـ أنا أفوّض المحكمة!

ـ والمحكمة تعتذر، لديها أشغال!

ـ ومسألتي؟ أليست شغلاً؟

صاحت دندنة:

ـ اخجلي يا قمْطرة، وكفاك تهريجًا.. هذه الأمور المخجلة تقال بالسرّ وليس بالعلن، ثم ما هذه الكلمات البذيئة: التعريص، وفرش الملاية، والردح وغيرها؟ هل لديك أقوال أخرى، غير التي سمعناها؟ لا أظنّ، لذلك أطلب من المحكمة، إذا لم يكن لديها ما تسأل عنه بعد، أن تصرف قمْطرة وصقرش، وبذلك ننتهي من الهزل وندخل في الجدّ!

زعقت قمْطرة:

ـ هزل وجدّ وتهريج؟ لا. هذا كثير، ويستحقّ «فرش الملاية» حقيقة لا مجازًا!

قال رئيس المحكمة:

ـ كلام وكيلة الادعاء مقبول جملة وتفصيلاً.. ليس لدى المحكمة ما تسأل قمْطرة عنه بعد، لذلك توكّلي على الله يا قمْطرة، وأرينا عرض أكتافك!

ـ ومسألة..!؟

ـ انقبري أنت ومسألتك..

ـ والثأر؟

ـ الثأر من الأرقش؟ خذي ثأرك بعيدًا عن هنا.

ـ والمسرح؟

ـ قمت بدورك كاملاً عليه.. وعندما تكون هناك ضرورة لاستدعائك نناديِ عليك..

ـ وإذا كنت مشغولة بتلك المسألة.

صاح رئيس المحكمة:

ـ اللعنة عليك، وعلى تلك المسألة، وعلى صقرش معك.. انقلعي!

انقلعت قمْطرة ومعها صقرش. وقفا، بالتدافع، في الصفوف الأولى، حتى لا تفوتهما كلمة أو إشارة.. وكانت هذه تعليمات قمْطرة، التي لا يستطيع صقرش أن يخالفها. وقد استغرب الطبيب ياسر، وميلاد، هذا الانقلاب الذي جعل من صقرش تابعًا، بعد أن كان متبوعًا، يمشي الصيّادون وراءه في الغابات، لأنّه الأفطن والأشجع، والأعرف بمسالك أيّة غابة يدخلها!

قال الطبيب ياسر:

ـ سبب هذا الانقلاب هو الزواج يا ميلاد.. شخصيّة قمْطرة طغت على شخصيّته منذ فشله في أن يكون فحلاً معها!

قال ميلاد:

ـ لكنّه لم يحاول، لم تدعه يحاول، احتقرته لأنّه كان فظًّا معها، لأنّه بدأ بحرف الرّاء، هل يعقل أن يقول الزوج لزوجته في

ساعة الدخلة «تعالي أركبك!» عيب، هذا هو العيب، هذه هي الحمرنة، صقرش كان حمارًا، يتعاطى مع حمارة في بيته.. إنّه شاذّ!

ـ قد يكون هذا هو السبب، وقد يكون غيره.. قمْطرة تحبّ الأرقش!

ـ وأنت الذي لفتها إلى هذا الحبّ، يا طبيب، فصدّقت.. لماذا مزحت معها هذه المزحة؟

ـ للاختبار يا ميلاد.. أردت أن أعرف هل كلّ النساء سواء؟ وطلعت، قمْطرة، مثل غيرها، مثل رئيفة وفدوى وحتى دندنة.. تراهن على أنّني أستطيع أن ألعب بعقل دندنة؟ «الغواني يغرّهن الثناء» ـ قال أحمد شوقي.

ـ وهل قمْطرة غانية؟ ودندنة.. غانية أيضًا؟ لنؤجّل هذا الحديث، فقد عادت المحكمة إلى الانعقاد..

قال الرئيس أكرم الرمّاح:

ـ أنا مستاء جدًّا ممّا جرى في الجلسة السابقة.. ولن أسمح بأن يتكرّر. النظر، الآن، في قضيّة رئيفة طفيش، باعتبارها المسؤولة الأولى، ومن عندها بدأت كل المشاكل.. تقدّمي يا رئيفة، قولي كلّ شيء بصراحة، ودون مواربة. تعاوني مع المحكمة، لأنّ تعاونك مفيد لك ولنا.. الاسم والكنية والسن... إلخ.

بعد الانتهاء من هذه الشكليّات، قال المحامي مغاور السمندي:

ـ أنا حاضر مع الموكلة سيّدي الرئيس!

ارتفع صوتٌ أحدث ضجّة، عندما تقدّم أرقش البيدري من قوس المحكمة، قائلاً:

ـ أنا أنضم إلى الدفاع عن رئيفة طفيش، وهذه ورقة التوكيل سيّدي، وسأكون سعيدًا بالتعاون مع المحامي الصيّاد مغاور السمندي زميلي.

سادت الدهشة، اشرأبّت الأعناق، نظرت رئيفة إلى الحكيم بشير تستمدّ القوّة، ابتسم لها مشجّعًا، قالت قمْطرة لمن حولها: «لِكْ! عملها العكروت!» نهضت وكيلة الادعاء دندنة، ألقت مطالعة عدّدت فيها جرائم رئيفة، ختمتها بقولها:

ـ أطلب من المحكمة الموقّرة ألاّ تأخذها رحمة بالمتهمة، فهي مجرمة، عريقة في الإجرام، ومن العدل أن يبتر هذا العضو الفاسد من جسم المجتمع، وأن تحكم بالإعدام شنقًا حتى الموت.

بكت رئيفة وهي ترتعد خوفًا، أثار بكاؤها شفقة عليها، تعالت الهمهمات والدمدمات، صاح بعضهم: «العدل أساس الملك». زعق آخرون: «لا، ليس الإعدام!» ارتفعت أصوات: «الرحمة، الرحمة يا محكمة!» قال الحكيم بشير: «ضعوا أيديكم على قلوبكم، واحكموا بما تمليه عليكم ضمائركم، فقد كانت هذه المتهمة زميلتنا في مطاردة الذئب الأسود، وأبلت في ذلك بلاءً حسنًا!» ردّت أصوات: «لهذا ألقتكَ في ماء النبع!» أجاب الحكيم بشير: «الذنب في هذا عليّ، أنا المخطئ. . وسأكون

شاهد نفي». صاحت قمْطرة: «وأنا سأكون شاهد إثبات، وأفضح شيبة هذا الحكيم الذي أصابته جَهْلة الستّين!».

راحت مطرقة رئيس المحكمة تدقّ بشكل متواصل، وصاح بالحاضرين:

ـ كلّ من يرفع صوته، سأعده مشاغبًا، يرمي إلى تعطيل عمل المحكمة، والمشاغب سيحكم بموجب القانون، ودون شفقة.. سكوت، صمت، لا همسة أو وشوشة، مفهوم؟ الكلمة الآن لمحامي الدفاع أرقش البيدري:

إلاّ أنّ محامي الدفاع لاذ بصمت غضوب، نظر في الوجوه من حوله، وفي الجهات الأربع، متأمّلاً، متفرّسًا، مستقرئًا، منذرًا المشاغبين بصمته الذي يقول ولا يقول، متوعّدًا الذين يحسبون أنفسهم كواسر، ولم يبق إلاّ أن ينقضّوا على الفريسة لتمزيقها، بينما هيئة المحكمة تتابع نظراته التي ترز نارًا، ووجهه الذي بدا مربدًا، حتى ظنّت أنّه استغنى عن الكلام الذي طلبه، واستجابت لطلبه، فسأله الرئيس:

ـ وبعد يا أرقش؟

تقدّم الأرقش من رئيفة، أمسكها من كتفها وقال بنبرة حادّة، مندّدة:

ـ هذه هي الضحيّة، نعم! هذه الضحيّة، وأنتم الذين تحسبون أنفسكم كواسر، انقضّوا عليها واطعنوها، قطّعوا جسدها بسكاكينكم الحادّة، أو استعملوا أنيابكم الحادّة فانهشوها.. إنّني، أنا الأرقش وكيلها، أبيحها لكم، أقدّمها مذبوحة،

مجرّحة، مدمّاة، جاهزة للأكل والمضغ على موائدكم.. فماذا تقولون؟! لماذا لا تجيبون؟

دقّ رئيس المحكمة بمطرقته وقال:

ـ أطلب من محامي الدفاع أن يدخل في الموضوع، وإلاّ أضاع فرصة الكلام التي منحناها له.

قال الأرقش:

ـ سيّدي الرئيس، حضرات المستشارين!

إنّ من البيان لسحرا، لكنّني سأري وكيلة الادعاء، أنّ مطالعتها كانت صفرًا، صفرًا، صفرًا.

احتجّت دندنة:

ـ هذا تهجّم على وكيلة الادعاء، مرفوض ومؤسف.. أطلب شطبه من محضر الجلسة والاعتذار عنه.

تشاور رئيس المحكمة مع مستشاريه وقال:

ـ طلب وكيلة الادعاء غير مبرّر قانونيًّا.. ليكمل محامي الدفاع كلامه.

قال الأرقش:

ـ جهة الدفاع تكيل بالكيل الذي يكال لها.. مطالعة وكيلة الادعاء كانت نزقة، غير متّزنة، غير لائقة، ينقّط منها الحقد والسمّ، ومع ذلك لم نقاطعها، لم نحتجّ عليها، لم نطلب شطبها من محضر الجلسة، لم نطلب الاعتذار عنها، وكان كلّ هذا من حقّنا..

تابع الأرقش:

ـ إنّ جهة الدفاع ساءتها غوغائيّة الغوغائيين، وهذه الضحيّة..

قال ذلك وتقدّم من رئيفة فأمسك بها من كتفها، وتابع: هذه الضحيّة التي أباحها الدفاع للحاقدين، والممرورين، والمفترسين، يبيحها أيضًا لوكيلة الادّعاء، فلتتفضّل، مشكورة، وتنشب أنيابها فيها..

دقّ رئيس المحكمة بمطرقته وقال:

ـ التجريح ممنوع، ومن كلّ الأطراف، الدفاع يتابع مرافعته.

قال الأرقش:

ـ الدفاع يكتفي بما قال، وهذه ليست مرافعة، بل تعليق بسيط وموجز، ومرّة أخرى..

تقدّم من رئيفة وأمسك بها من كتفها وهزّها بقوّة وتابع:

ـ مرّة أخرى، أبيح دم موكّلتي لمن يرغب أن يولغ فيه، وأقدّم للمحكمة الموقّرة وثيقة تنازلي عن حقّي الشخصي، في كلّ التهم التي لي بها صلة، والموجّهة إلى موكّلتي رئيفة طفيش وشكرًا!

تعالت الأصوات:

ـ شهامة!

ـ تصرّف رجل مقدام!

ـ هذا هو الأرقش، عقدنا وحبيبنا!

وصاحت قمْطرة:

ـ سحر!! رئيفة عملت حجابًا للأرقش فسحرته!

ردّت عليها امرأة صيّادة:

ـ ابلعي لسانك الوسخ يا وجه الشؤم.

دقّق رئيس المحكمة بالوثيقة، تشاور مع مستشاريه، أعلن:

ـ التنازل عن الحقّ الشخصي نظامي ومقبول، إلاّ إذا هناك اعتراض من الادعاء.

ردّت دندنة:

ـ لا اعتراض على التنازل عن الحقّ الشخصيّ من قبل الأرقش البيدري.. وأنا أقدّم له التهنئة على التمثيليّة الغريبة التي قام، وأشكره على أنّه شمل الادعاء فيمن أباح لهم افتراس موكّلته، وأقول له: الادعاء قام بواجبه، بناء على قرار الإحالة، ولم يكن حقودًا، أو ينقّط سمًّا كما ادّعى، وهو، حين طالب بالإعدام للمتهمة، كان أمينًا، وحريصًا، على أخذ العدالة مجراها، ولا نيّة له، أو من شيمته، أن يفترس أو يولغ بالدم ولو كان مستباحًا.. لقد أجاد الأرقش التمثيل، ويسرّني أن أراه يلعب دوره في أيّة تمثيليّة مسلّية، مع إعجابي المسبق!

وقف المحامي مغاور السمندي وقال:

ـ سيّدي الرئيس، السادة المستشارين! أنا عاجز، وأقرّ بعجزي، عن مجاراة وكيلة الادعاء في سفه القول..

صاحت دندنة:

ـ أحتجّ! أحتجّ على عبارة «سفه القول» التي تليق بقائلها السفيه.

قال الرئيس:

ـ على الدفاع والادعاء أن يتجنّبا الكلمات النابية.

تعالت الأصوات:

ـ البادئ أظلم، دندنة هي التي بدأت.. وكان لا بدّ من الردّ عليها.

ـ وما من ظالم إلاّ ويبلى بأظلمِ!

شقّت قمْطرة طريقها إلى أمام، صاح رئيس المحكمة بها:

ـ أين!؟

ـ لديّ ما أوشوش به دندنة.

ـ الوشوشة ممنوعة.

ـ ومن يمنعها؟ هذه القحبة!؟

زعق الرئيس:

ـ بذيئة! فاجرة! اسحبوها من هنا، جرّوها جرًّا، اضربوها إذا مانعت.

قال الدفاع:

ـ هيئة الدفاع تتضامن مع الادعاء، أمثال هذه الألفاظ معيبة بحقّنا جميعًا، إنّما على الادعاء ألاّ يستفز الدفاع، فما قيل بحقّ زميلي الأرقش معيب أيضًا.. ولا أقول واحدة بواحدة، إنّما أبدي أسفي على ما سمعت من الكلام التجريحي الصادر عن الادعاء.. والآن أدخل في الموضوع: إنّ القضيّة التي تنظر فيها

المحكمة ذات طابع رومانسي. . رئيفة تحبّ الأرقش، والأرقش لم يستجب لهذا الحبّ، والمحبّ مجنون إذا أخفق في حبّه، ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك، من مجنون ليلى، إلى روميو وجولييت، إلى عطيل، إلى أنّا كارانينا. . وهذه كلّها شواهد وبيّنات، على أنّ الحبّ يؤدّي، في بعض حالاته إلى الجنون. والحقّ، إذن، على الحبّ، فهل نحاكم الحبّ؟ الدفاع يرى أنّ الذي تسبّب في هذه القضيّة هو الحبّ، فحاكموا الحبّ واحكموا عليه، لأنّه المذنب الأساس.

سيّدي الرئيس، حضرات المستشارين، السيّدة وكيلة الادعاء. . الدفاع يسأل: مَن منكم لم يحب؟ ومَن منكم لم يكتو بنار الحبّ؟ ومَن منكم لم يعانِ، أو لا يزال يعاني، من الحبّ؟ الجواب واضح: كلّنا عانينا، لكنّنا لم نتآمر ولم نجرم، بدافع من حبّنا، وهذا في العلن صحيح، لكنّه في المستور غير صحيح، وقد قال أحد كبار المفكّرين: «لو كشفنا على عشر معشار ما يفكّر فيه الناس سرًّا، لأثرنا فضائح لا نهاية لها». وهذا القول حقيقة، بصرف النظر عن قائله، وحتى لو افترضنا أنّني أنا الذي قلته، أو فبركته، لأستنتج منه أنّنا جميعًا أحببنا، ولكلّ منّا فضيحة في حبّه، يتكتّم عليها، يحرص على عدم كشفها. . لكن من سوء الحظّ، أنّ المتهمة رئيفة لم تقو على التكتّم في حبّها، ولم تتحمّل إبهاظه، أو ضغطه النفسي، فجنت وفضحته، ونحن هنا نحاكمها لا على حبّها، وإلاّ كان علينا أن نحاكم حبّنا معها، وإنّما نحاكمها لأنّها جُنَّت في حبّها، فارتكبت ما ارتكبت وهي في حالة جنون، والمجنون لا يحاكم على تصرّفاته، وتاليًا تنتفي مسؤوليّته عنها. . شكرًا، الدور لزميلي في الدفاع الأرقش البيدري!

كان الحاضرون يصغون، بانتباه شديد، وكان الصمت سائدًا، كاملاً.. فلا تعليقات ولا هتافات، وكان كل من الحاضرين معجبًا بمرافعة مغاور السمندي، ومع الإعجاب يفكّر في حبّه، في المستور من هذا الحبّ، سائلاً الله ألاّ يكشفه، شاكرًا الله لأنّه لم يجن، ولم يتآمر، أو يحاول القتل كما فعلت رئيفة، مع التعاطف معها، والرغبة في براءتها، أو تخفيف الحكم عليها.. إلاّ قمْطرة، ودندنة وفدوى، الحاقدات، الغائرات، المتشفّيات، الراغبات في إدانتها. والجميع يترقّب، بفضول شديد، بانتباه تامّ، باستثارة مسبقة، مبعثها أنّ الأرقش، على علاقة بالقضيّة، وأنّه المقصود بما أجرمت به رئيفة، ورغم ذلك فإنّه يسعى لإنقاذها من هذا الجرم، وأنّه، في كلمته التمهيديّة أمام المحكمة، كان ذكيًّا، مفوّهًا، ممثّلاً بارعًا، أغاظ الادعاء بتمثيله، وأدخل الرعب إلى بعض النفوس بقضيّته، وقد داعبه رئيس المحكمة بقوله:

ـ أنت، يا الأرقش، الضحيّة والمنقذ، وكنّا نتوقّع أن تكون الضحيّة والجلاّد، فإذا بك تقلب توقّعاتنا رأسًا على عقب، وتفاجئنا بأنّك ضحيّة، لكنّك ليس جلاّدًا!

قال الأرقش وهو يبتسم:

ـ السيّدة وكيلة الادعاء، أعجبت بتمثيلي، وأنا أعجبت بإعجابها، وسأعمل مستقبلاً ممثّلاً، كي تتحقّق نبوءتها، ولن أخيِّب ظنّ هيئة المحكمة، فالممثّل يؤدّي جميع الأدوار، وقد أدّيت دور المنقذ في هذه القضيّة، وهذا يتطلّب شجاعة، أستمدّها منكم، ودور الجلاد يتطلّب شجاعة أيضًا، لن أتردّد في استمدادها منكم، وعلى الله الاتكال.

أيّها السادة! . . زميلي في الدفاع أوضح للمحكمة الموقّرة، وببيان صريح، كل ما يحتاج إلى إيضاح، فشكرًا له على ما قال، وشكرًا للمحكمة على سعة صدرها، وإنصاتها لما قال، ولن أتوقّف عند ما تكرّم به الادّعاء من قول جميل في حقّي، وقد رشقني بعضهم بالحصى، كما رشقوا الحجّاج من قبلي، وأنا لست ملثّمًا مثله كي أضع العمامة لتعرفوني، لكنّني، مثله، أقول لكم هناك رؤوس أينعت وحان قطافها، وأنا لها، فإذا لم يصدّق من لا يصدّق بينكم، وتمادى، وقبح كلامه أو شاغب عامدًا متعمّدًا بقصد التشويش على المحكمة أو الادّعاء، أو الدفاع، فإنّني سأجعله يدفع الثمن غاليًا!

هذه، يا سادتي، ليست محكمة عاديّة، إنّها مجلس عدلي، وقرار المجلس العدلي نافذ على الجميع، بمن فيهم رئيفة هذه، وغير قابل للاستئناف أو النقض. . وأنا أعتذر لهيئة المجلس العدلي، بسبب خروجي عن الموضوع، لكنّني سأدخل في الموضوع، مع قليل من الصبر، ألتمسه التماسًا، والسؤال: أتوقّف أم أتابع؟

استشار رئيس المحكمة مستشاريه، وطلب رأي الادعاء، فلمّا كانت هناك موافقة، قال:

ـ يستطيع الأرقش، محامي الدفاع، أن يتابع، على شرط الوفاء بوعده أن يدخل في الموضوع من غير تأخير.

قال الأرقش:

ـ وأنا موافق وعند وعدي. . إنّنا هنا، في هذه الغابات، نطارد الذئب الأسود، والذئب الأسود هو الفساد، وهذا الفساد

استشرى، أكل رغيفنا، قضم ثيابنا، أوصلنا إلى حافّة الجوع، بل تجاوزها، حتى صار الناس ينبشون القمامة، ليعثروا على كسرة خبز، أو لقمة طعام، أو أيّ شيء يباع، مهما كان تافهًا، ليشتروا به طعامًا لأولادهم، أو يجدوا، في حاويات القمامة، الخرق التي تستر أجسادهم وعوراتهم، بينما الذئب الأسود، الذي نطارده، يتجوّل على هواه، في الغابات والمدن، ويتبختر في شوارع العواصم، وعلى الطرقات، ضاحكًا من بلاهتنا، لأنّه ليس هناك ذئب، بل نهب أسود، كان مستترًا وأصبح مكشوفًا، ومن هذا النهب، الذي يسمّونه تلطّفًا «الكسب غير المشروع» يبنون القلاع والقصور، ويودعون مئات المليارات، على ذمّة النشرات الاقتصاديّة الأجنبيّة، في البنوك خارج البلاد!

ما أريد أن أقوله هو أنّ الذئب الأسود خدعة، ومطاردته أُلهية، والأمل في العثور عليه تمويه، وهم، سكّان القلاع والقصور، هم من اخترع هذه اللّهاية، ووضعها في أفواهنا، كما توضع اللّهيات المطّاطيّة في أفواه الأطفال الجائعين من أبنائنا.. وما أقوله ليس اكتشافًا، فأكثر الصيّادين اكتشف هذه اللعبة القذرة، وأصابهم الملل، والأمراض النفسيّة، فجُنّ بعضهم ممّن لديهم قابليّة الجنون، ورئيفة طفيش، الماثلة أمامكم، أصابها الجنون، ولديّ إثبات على ذلك.. فهل تسمح عدالتكم، باستدعاء الشاهد، الطبيب نائل فتّاح، المختصّ بالأمراض العصبيّة والنفسيّة؟

أقسم الطبيب نائل فتّاح اليمين القانونيّة وقال:

- سبقني الدفاع إلى قول ما سأقوله، وشهادتي مختصرة،

فالمتّهمة رئيفة طفيش، راجعتني في عيادتي مرارًا. . وبعد دراسة حالتها تبيّن لي أنّها مصابة بداء الاكتئاب الخطر، الذي له حالتان متلازمتان: الهدوء إلى حدّ الصمت، والهياج إلى حدّ الجنون، وحين تكون في حالتها الثانية، تصبح عاقلة مجنونة في وقت واحد، وتتصرّف تصرّفات، في حالة الهستيريا، أو الجنون الكامل، تصرّفات غير مسؤولة عنها.

سأل رئيس المحكمة:

ـ هل نفهم من هذا أنّ لديها انفصامًا في الشخصيّة؟

ـ ليس تمامًا. لكنّها، كما قلت، عاقلة مجنونة، وخصوصًا إذا كانت تسعى إلى شيء وأخفقت في الحصول عليه.

ـ وهل للحبّ دخل في ذلك؟

ـ من غير شكّ، فاللاشعور، وخبث اللاشعور، يفعلان فعلهما في الخفاء.

ـ أنت، يا حكيم، أقسمت أن تقول الحقّ، بلا زيادة ولا نقصان.

ـ وأنا عند قَسَمي!

الكلمة للإدّعاء! وقفت دندنة، حدّقت في الطبيب، كأنّها تحاول أن تستقرئ سريرته، وفجأة انقضّت عليه بهذا السؤال:

ما علاقتك بالأرقش؟

ـ تتّهمينني في أمانتي الطبيّة؟

ـ نقلب السؤال: هل الأرقش صديقك؟

ـ لا! ليس صديقي، وحتى لو كان صديقي فإنّني لا أخون قَسَمي، سواء عندما تخرّجت من كلِّيَّة الطبّ أو عندما مثلت أمام المحكمة الموقّرة.

ـ من أتى بك إلى هنا، وبأيّة وسيلة؟ ومن دفع أجرة السيّارة التي جئت بها؟

ـ أنا شاهد، والشاهد لا يأتي مشيًا على قدميه كلّ هذه المسافة. إنّه يركب سيّارة، ومن يطلبه للشهادة من الطبيعي أن يدفع أجرة السيّارة.

ـ دفع لك أم للسائق؟

ـ للسائق طبعًا، لكنّه دفع لي ثمن أتعابي أيضًا.

ـ كم كان المبلغ الذي دفعه؟

ـ المبلغ المعتاد!

ـ والزيادة التي فوقه؟

ـ تقصدين الرشوة؟ أنا يا سيّدتي لا أرتشي، وما كنت أتوقّع مثل هذا السؤال.. وأحتجّ عليه!

ـ إذن تآمرت معه دون أجرة، دون رشوة، وجئت خالصًا لوجه الله.. قل هذا الكلام لغيري.

ـ بل أقوله لك، وقد صبرت عليك، وفهمت منذ البدء أنّك تحاولين الطعن في شهادتي، وهذه نزعة تدلّ على الخبث؛ لكنّك، رغم خبثك، لن تتوصّلي إلى تغيير ما أملاه عليّ ضميري، وما يتّفق وسلوكي، وشرفي الطبّي.. ولعلمك أقول: إنّني

استدعيت للشهادة أمام المحاكم مرارًا، وحاورني من هو أذكى منك وأكثر لباقة وأكثر احترامًا.. لذلك ألجأ إلى المحكمة الموقّرة، لتكون حكمًا بيني وبينك.. أو أنسحب!

تعالت الأصوات طالبة عدم انسحابه، منددة بوقاحة وكيلة الادعاء، وقالت قمْطرة بصوت عالٍ، طغى على الأصوات الأخرى:

ـ أما قلت لكم هذه عاهرة؟ والآن، هل رأيتم عهرها، وسمعتم بذاءة أسئلتها!؟

صاح رئيس المحكمة ومطرقته تدقّ:

ـ أما طلبت منكم، يا حرّاس، أن تبعدوا هذه السليطة عن باحة المحكمة؟ أخرجوها ولتذهب إلى الجحيم! أمّا أنت، يا وكيلة الادعاء، فقد خرجت عن الأصول، وتفوّهت بما لا يليق.. هل لديك أسئلة بعد؟

ـ سؤال واحد فقط!

ـ تفضّلي:

ـ من أيّ جامعة تخرّج الطبيب الشاهد؟

ردّ الطبيب نائل:

ـ من عدّة جامعات، مثل السوربون، وأدنبره، وتكساس وغيرها.. هل اكتفيتِ بهذا الجواب، أم أزيدك علمًا؟

قال رئيس المحكمة:

ـ هل لدى الدفاع أسئلة؟

وقف الأرقش وقال:

ـ هل تعرف، يا سيّدي الطبيب، من أيّ جامعة تخرّجت وكيلة الادعاء؟

ـ لا، طبعًا!

ـ إذن أستأذن المحكمة في توجيه هذا السؤال إلى وكيلة الادعاء: من أيّ جامعة تخرّجت يا سيّدتي؟

ـ من الجامعة التي تخرّجت منها أنت!

ـ أنا تخرّجت من كليّة الاقتصاد، وبعدها من كليّة الحقوق، والسؤال موجّه الآن إلى الطبيب، الذي أتعبناه كثيرًا في أداء شهادته، لأنّ وكيلة الادعاء خرجت عن المألوف واللائق، في توجيه الأسئلة إليه، وكنت أتوقّع من المحكمة أن تلفت نظرها، كي تكفّ عن التجريح والاتهام الرخيص والطعن الصريح، لا المبطّن، بنزاهة الشاهد الكريم.

ـ محامي الدفاع على حقّ، وأمام أسئلة وكيلة الادعاء النابية، كان على المحكمة لا أن تلفت نظرها فقط، بل أن توقف أسئلتها الخارجة عن منطق الادعاء وأصوله، لكنّنا أردنا أن نعرف إلى أين تريد أن تصل!

يتابع الدفاع:

ـ هل صادفتك، سيّدي الطبيب، وقاحة في الأسئلة الموجّهة إليك، مثل هذه الوقاحة؟

ـ لا! لم تصادفني!

ـ ما رأيك بوكيلة الادّعاء وبالتهم السيّئة التي وجّهتها إليك؟

ـ رأيي سأرفعه على شكل احتجاج، وربّما شكوى، ضدّ الادعاء إلى نقابة الأطبّاء!

ـ نرجو أن تنسى، وأن تعفو، حرصًا على سمعة المحكمة، والسؤال هو: هل المتهمة رئيفة مريضة عقليًّا؟

ـ هذا لا شكّ فيه.. إنّها عاقلة مجنونة كما بيّنت سابقًا، وإنّها تتصرّف كمجنونة عندما تكون في حالة معاناة من صدمة ما، كالإخفاق في الصيد أو العمل أو الحبّ وغير ذلك، وتصرّفها عندئذ خارج عن دائرة المسؤوليّة.

ـ إذن هي غير مسؤولة، ما دام ما بدر منها كان في حالة هياج شهده الجميع؟

ـ المجنون لا يحاسب على أفعاله، مهما تكن، في نوبة جنونه الكامنة أو الظاهرة.

ـ شكرًا لك يا طبيب، و.. اعتذارًا نيابة عن الادعاء، وشكرًا لهيئة المحكمة.

قال رئيس المحكمة:

ـ ترفع الجلسة إذن إلى الغد! ورفعت فورًا.

ـ ٩ ـ

في اليوم التالي، صباحًا، عقدت المحكمة جلسة، استمعت فيها لشهادة الحكيم بشير خلف، الذي تقدّم من القوس، بهدوء وشموخ ورصانة ومهابة، وبعد أن أقسم اليمين على أن يقول الحقّ، التفت إلى رئيفة وقال:

ـ أنا الحكيم، الذي خانته حكمته بسبب جمالك، أطلب السماح منك، وآمل أن أسمع الكلمة بصوت يسمعه الجميع: هل تسامحينني يا رئيفة؟

بكت رئيفة من التأثر، انداح تأثّرها دوائر لفت الجميع، وعندما ارتمت على قدمي الحكيم لتقبّلهما بكى الحكيم نفسه، ودون أن يمسح دموعه، انحنى ورفعها عن الأرض، وقبّل جبينها قائلاً:

ـ طوبى لك، سامحيني، إذا كنت أستحقّ السماح!

ومن بين دموعها، قالت بصوت واهن:

ـ سامحتك، سامحتك، وأشكرك لأنّك جئت لتودّعني، قبل أن أذهب إلى الموت!

وقفت دندنة، وكيلة الادعاء، وقالت بنبرة تأنيب:

ـ ما هكذا تكون الشهادة أمام المحكمة، هذه التمثيليّة سبقك إليها الأرقش محامي الدفاع، وإذا كان قد قال عن مطالعتي إنّها صفر، فإنّني أجيبه: تمثيليّتك، البارحة، كانت أقل من الصفر، وتمثيليّة حكيمك هذا صفر على صفر.

تعالت الأصوات:

ـ عيب! بل عيب العيب، الحكيم أرفع من أن يردّ على هذا الانحطاط الخلقي، لذلك اعتذري إذا أردت السلامة، إذا أردت ألاّ نفتح دفترك وننبش ما فيه!

ردّت دندنة:

ـ أوباش، أنتم جميعكم أوباش، الادعاء يتمتّع بحصانة قانونيّة، فلماذا كانت هذه الحصانة!؟ كي يقول الأشياء، كلّ الأشياء، بجرأة ودون مبالاة بأيّة غوغائيّة.. تهدّدونني بفتح دفتري؟ افتحوه، افتحوه إذا شئتم، فليس فيه إلاّ ما يشرّف.. أمّا التهديد الموجّه إليّ، فأنا آخذه على محمل الجدّ، تاركة للمحكمة التي أنا أحد أركانها، بل أقوى أركانها، أن تتخذ بحقّكم الإجراء اللازم.

قال رئيس المحكمة:

ـ هناك تشويش متبادل بين الحاضرين والادعاء، وهذا مؤسف جدًّا، ترفضه المحكمة.. إنّ للإدّعاء حقًّا في قول ما يريد، ولكن ليس بالشكل الذي يريد، الشكل الخارج على اللياقة والأصول.. الحكيم بشير حكيمنا الذي نعتزّ به، وبوجدان طاهر، ناصع البياض كزهرة الياسمين، طلب السماح من المتهمة رئيفة، فماذا

كان ردّ رئيفة؟ حاولت تقبيل قدميه، من فرط احترام وإجلال، إلاّ أنّه أنهضها، طبع قبلة على جبينها، طالبًا منها السماح، وفي هذا منتهى التواضع والحكمة.. وقد بكت رئيفة، وبكى الحكيم نفسه، وكدنا نبكي تأثّرًا نحن أيضًا، وإذا بك ترين في هذا تمثيليّة، وتتّهمين الأرقش بأنّه سبقه في تمثيليّة مشابهة، ثمّ، بعد هذا كلّه، تطلبين من المحكمة اتخاذ الإجراء اللازم بحقّ الآخرين، فأيّ إجراء تريدين من المحكمة اتّخاذه؟

رفع الأرقش يده طالبًا الكلام، إلاّ أنّ المحكمة ردّت الطلب، آملة من الحكيم بشير أن يدلي بشهادته، مذكّرة إيّاه بقسمه، وبضرورة الإيجاز.

قال الحكيم بشير:

ـ سيّدي الرئيس، هيئة المحكمة الموقّرة، إنّني ألتمس العذر لكلّ ما بدر من وكيلة الادعاء، واعدًا إيّاها بالحلم، والاستعداد للإجابة على كلّ أسئلتها في حينها.. أمّا شهادتي فهي التالية، كنّا، رئيفة وأنا، حول البئر، ورغم تقدّمي في السنّ، وهذا الشيب الذي في رأسي، فقد اشتهيت احتواء رئيفة بين ذراعي، ليس كأب مع ابنته، بل كذكر مع أنثى، وبدفع من هذه الشهوة التي تذلّ الرجال، رحت أتقدّم نحوها ودمي يحترق، وقد تقدّمت نحوها، فصاحت بي، صيحة عصبيّة نزقة: مكانك! إلاّ أنّني رحت أتقدّم وهي تتراجع، وبقيت أتقدّم وهي تصيح متراجعة: ولا خطوة نحوي، فلمّا لم أرعو، ودانيتها مفتوح الذراعين، دفعتني في صدري بقوّة، فسقطت في حوض الماء، وهي تقهقه بعصبيّة معتوهة!

سأله رئيس المحكمة:

ـ ألم يسبق اندفاعك نحوها حركات إغراء منها؟

ـ المرأة، سيّدي، مغرية بحركات أو دونها.

ـ أنا أسأل عن محاولات إغراء لك.

ـ لم يحدث هذا!

ـ وكيف اشتهيتها دون إغراء منها؟

ـ كما يشتهي كلّ رجل محروم فتاة جميلة على مقربة منه.

ـ لكنّ الشهوة، أو النزوة، أو الطيش، يصدر عن شابّ لا عن كهل.

ـ جَهْلة الستّين يا سيّدي.. وعندما تبلغ الستّين تعرف معنى جهلها.

ضحك رئيس المحكمة وقال:

ـ لا تحرجني يا حكيم، دع الطابق مستورًا.. هل لدى الادّعاء أسئلة؟

صاحت قمْطرة:

ـ منذ بدأت المحكمة وأنا أرفع يدي، فهل شهادتي مرفوضة؟

قال الرئيس:

ـ شهادتك، يا قمْطرة، غير مرفوضة، ولكن حذار من صبّ الزيت على النار!

قالت قمْطرة:

ـ أنا ليس عندي زيت ولا قطران.. لكنّني أريد مناقشة دندنة.. هذه الكذا وكذا.

ـ انكتمي. قبّح الله وجهك.. الكلام محصور بشهادتك أمام المحكمة، بعد أن أدّيت اليمين القانونيّة.

ـ في هذه الحال لديّ اعتراض.. لماذا تحاول المحكمة حماية وكيلة الادعاء منّا، ولا تحاول حمايتنا منها؟

ـ اعتراضك مرفوض.. ما هي شهادتك؟

ـ رئيفة مظلومة.

ـ المحكمة تقدّر ذلك أفضل منك! ما هي شهادتك؟

ـ الأرقش تاج رأسي.

ـ هذا خارج الموضوع.. هل لديك شهادة أم لا؟

ـ نعم! لديّ. كلّ ما قاله الحكيم صحيح مئة بالمئة.

ـ وهذا متروك لتقدير المحكمة أيضًا!

ـ إذن بسلامة بيضاتك!

ـ لا سلّمك الله يا سليطة.. هل لدى الادّعاء أسئلة؟

ـ بعض الأسئلة، وأوّلها أنّ الحكيم بشير غير صادق.. رئيفة هذه أغرته، شجّعته على ضمّها، هل حصل هذا يا حكيم؟

ـ لم يحصل!

ـ كن صادقًا لأنّك أقسمت.

ـ وأنا صادق بغير قسم!

ـ بماذا وعدك الأرقش، لتشهد هذه الشهادة الزور؟

ـ بمزرعة!

ـ أنا لا أمزح!

ـ أنت مخرّفة.. الأرقش أنزه ممّا تتصوّرين، وأنا كذلك!

ـ النزاهة تحتاج إلى إثبات.

ـ وعدم النزاهة يحتاج إلى إثبات.

قال رئيس المحكمة:

ـ يبدو أنّ وكيلة الادعاء، ليس عندها ما تسأله بعد، ترفع الجلسة للمداولة.

ـ لكن أسئلتي..

ـ انتهت!

قالت قمْطرة:

ـ أطلب من الأرقش، بعد أن تصافينا، أن يقبلني في الدفاع!

قال الأرقش:

ـ المحكمة، لا أنا، مَن يبتّ بهذا الطلب!

ـ ومَن هي المحكمة؟

ـ المحكمة هي المحكمة!

ـ وأنت أيضًا يا بروسس؟

ـ بروتس يا جاهلة!

ـ هذا لا يهمّ!

ـ ما الذي يهمّ إذن؟

ـ الردح . . فرش الملاية!

قال صيّاد:

ـ شبعنا من الردح، وعرفنا ماذا يعني فرش الملاية يا قمْطرة . . هاتي شيئًا جديدًا إذا كان عندك، وإلاّ أريحينا . .

أرادت قمْطرة أن تردّ، لكنّ الحاجب صاح: محكمة.

وقف الجميع احترامًا، وقال رئيس المحكمة:

ـ بسم الشعب، ثم تلا حيثيّات القرار الذي استغرق وقتًا طويلاً، إلى أن وصل إلى الحكم فقال:

أوّلاً: قرّرت المحكمة بالأكثريّة، اعتبار المتّهمة رئيفة طفيش غير مسؤولة عن تصرّفاتها لأنّها مختلّة عقليًا.

ثانيًا: الإفراج عنها ووضعها تحت المراقبة.

ثالثًا: الحكم مبرم، غير قابل للاستئناف أو النقض، صدر وأُفهم علنًا.

صفّق الحاضرون بقوّة، وبشكل متواصل، وتعالت الهتافات: يحيا العدل، يحيا العدل، وبكت رئيفة من فرح وهي تضع رأسها على صدر الحكيم بشير . . كانت تعبة مرهقة، تتمنّى أن تنام، فقادها الحكيم إلى خيمته وقال لها:

ـ نامي يا رئيفة، نامي إلى المساء، لا تفكّري، بعد اليوم، بأيّ شيء، ولا حتى بالرقابة، لأنّ أحدًا لن يراقبك، وما قالته المحكمة في قرارها نوع من الإجراء الاحتياطي، وفي إمكاني أن أضعك تحت رقابتي، وينتهي الإشكال!

ـ وإذا وجدوني عاقلة يعيدون محاكمتي؟

ـ محاكمتك انتهت، وأنت عاقلة، وفي وسعك أن تتصرّفي كعاقلة، والرقابة أقوم بها أنا.. لقد أنقذك الأرقش، قلت لك، عندما التقينا، أنّه وعد بإنقاذك، وأنّه دائمًا يفي بما وعد، وها قد وفى بوعده.. نامي الآن، وسأسدل غطاء باب الخيمة بعد خروجي، ولن أدع أحدًا يزعجك.

حاولت رئيفة أن تنام، وكانت تأمل أن تنام بعمق ولمدّة طويلة، لكنّها أفاقت بعد قليل مذعورة من كابوس أصابها! وكان الحكيم يعرف أنّ أعصاب الإنسان تتوفّز في حالتي الحزن والفرح، وأنّ رئيفة لن تستغرق في النوم، لذلك ما إن صرخت مذعورة حتى دخل الخيمة عليها، باذلاً جهدًا غير قليل في تهدئتها وإعادة الطمأنينة إلى نفسها، طالبًا من أحد الحرّاس أن يأتيه بزجاجة ماء بارد من النبع رأسًا، وبفنجانين من القهوة السادة، التي تساعدها على الاسترخاء، وتساعده في تفهيمها أنّ ما أصابها كان متوقّعًا، لأنّه ردّات فعل عصبيّة، على ما كابدته أعصابها خلال المحاكمة وما سبقها.

شربت رئيفة الماء، وبعدها القهوة، ومن جديد عاودها البكاء، فتركها الحكيم تبكي تفريجًا لكربها، إلى أن صفا رأسها وصارت قادرة على الكلام، وهو يمسّد شعرها قائلاً:

ـ استريحي. . لا تتكلّمي كثيرًا، فالكلام متعب أيضًا، بماذا تفكّرين؟

ـ أين أنا؟

ـ في الخيمة!

ـ والمحكمة؟

ـ قلت لكِ إنّها انتهت، وأنتِ حرّة، ليس لأحد حقّ عليك. . لكنّك جائعة، منذ كمْ يوم لم تأكلي؟ منذ أيّام؟ لا شهيّة لك؟ كأس من اللبن يفيدك جدًّا، اشربي اللبن وعودي إلى النوم.

ـ ودندنة؟ مخيفة دندنة هذه! لا أريد أن أراها. . إنّها تريد إعدامي!

وجد الحكيم ألاّ فائدة من محاورة رئيفة، وهي ترزح تحت وطأة الخوف، الخوف هو الأساس في كلّ اختلال عصبيّ أو نفسيّ. وهذا الاختلال، إذا طرأت عليه صدمة أو ضغط شديد، لمدّة أيّام، ينقلب إلى جنون. . ورئيفة تحتاج إلى معالجة، إلى حبوب مهدّئة، وأخرى منوّمة. النوم هو العلاج، النوم مفيد أكثر من العلاج. وفي بلدان العالم، مثل ألمانيا، يعالجون بعض المرضى بالنوم، وفي روسيا يعالجون القرحة بتنويم المريض، الزمن الكافي للشفاء منها، ويغذونه بالسيروم!! فكيف تعالج رئيفة، في هذه الغابة، حيث لا أطبّاء مختصّون، ولا أدوية؟

خرج الحكيم من خيمة رئيفة مهمومًا، فإذا كانت قد أنقذت من الإعدام، فإنّ الجنون إعدام بطريقة أخرى. وفي الحالة التي هي فيها لا بدّ من إبعاد دندنة عنها، وكذلك قمْطرة، والأفضل أن

يستعين بالأرقش وبالطبيب ياسر، إلاّ أنّ رئيفة صاحت منذ رأت الأرقش:

ـ أنت لم تمت؟

ـ ولماذا أموت؟

ـ لأنّ دغمش أطلق عليك النار بطلب منّي، فلما لم يستطع قتلك، أطلقت عليك النار بنفسي.. أنا أذكر هذا جيّدًا، وأذكر أنّ قمْطرة قالت: «المحكوم بالإعدام، يخاف من جرّ الحبل».

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا أذكر شيئًا.

جاء الطبيب ياسر، لكنّه قوبل بالرفض، ومنذ رأته رئيفة عاودها الاهتياج، فأخرجه الحكيم بشير بسرعة، وسأله:

ـ هل معك بعض الحبوب المهدّئة؟

ـ رئيفة تحتاج إلى إبرة مهدّئة، لكنّها تصاب بالذعر ما إن تراها، وهذا ما حدث معنا.. تهيّأ لها أنّنا سنعدمها بإبرة سمّ بدل المشنقة، فراحت تصرخ: «لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت!» وهسترت، ألا تذكر يا حكيم بشير؟

ـ بلى.. أذكر! لذلك ابتعد عنها في الوقت الحاضر.

ابتعد الطبيب ياسر، ابتعد الأرقش، ظلّ الحكيم بشير معها، راح يلاطفها، يقول لها: «أنا معك يا رئيفة! وسأبقى معك، ولن يجرؤ أحد على أخذك منّي.. نامي، حاولي أن تنامي، النوم يفيدك جدًّا.

ـ وأنت؟ ألن تنام معي؟

ـ بلى! سأنام معك، تعالي إلى حضني، نامي في حضني. هل تخافين منّي؟

ـ لا! لا أخاف منك، أنت لن تتركهم يعدمونني!

ـ لا أحد يفكّر بإعدامك. . أنت بريئة. . المحكمة برّأتك.

ـ ودندنة؟ هذه طالبت بإعدامي.

ـ والمحكمة رفضت طلبها. . خلاص انتهى كل شيء.

ـ وأنت؟ هل تحبّني؟

ـ أحبّك كثيرًا يا رئيفة، يا عزيزتي الصغيرة.

ـ إذن قبّلني من فمي. . أريدك أن تقبّل فمي، ولن أعضّك، هل تفعل؟ أريدك أن تفعل! كما في المرّة الماضية، عندما رميتك في ماء النبع، هذه المرّة لن أرميك في ماء النبع!

فكّر الحكيم بشير قليلاً، استغرب أن تخاف وأن تشتهي. لم يكن يعرف أنّ مَن يخاف الموت، تتملّكه الرغبة في الجنس قبل الموت، وأنّ الذي يقف تحت المشنقة، يرغب في تدخين سيكارة، هي التعويض عن المرأة قبل الشنق، وأنّ المشنوق يقذف عندما يشنق، وأنّ بعض الرهبان، في أحد الأديرة، كانوا يلجأون إلى لعبة الشنق، وصولاً إلى اللّذّة، وأنّ بعضهم كاد يموت، لأنّ مَن معه من الرهبان لم يرفعه إلى أعلى، كيلا يموت بعد بلوغه اللّذّة. . وأنّ رئيفة، التي في حضنه، تحسب حالها، لاشعوريًا، ستموت، لذلك تطلب منه أن يقبّلها في فمها عساها تبلغ اللّذّة. . الحكيم بشير، عرف هذه الناحية السيكولوجيّة، بعد

ذلك بزمن، ومن أحد الأطبّاء المختصّين في المدينة، أمّا عندما قالت له رئيفة، وهي في حضنه، قبّلني في فمي، فقد استغرب جهلاً قولها، خاف أن يقبّلها، مع أنّه اشتهى ذلك، لئلاّ تستاء، تثور.. تصنع له فضيحة جديدة!

رجل وامرأة، ذكر وأنثى، والأنثى في حضن الذكر، حارّة، شهيّة، مجنونة، فماذا يفعل، ليهدّئ مجنونة؟ يستغلّ جنونها؟ هذا من الكبائر، وليس الحكيم بشير، مهما كان مستثارًا، من يقدم عليه، لأنّه يجرّده من شرفه، يجعله كالسفلة، الذين رآهم يومًا، يلاحقون امرأة معتوهة، مشعّثة الشعر، ممزّقة الثياب، إلى إحدى الخرائب، فتدخّل ليردّهم عنها، فصرخت به، وعيونها حمراء: «اتركهم، أنا أريدهم!» فتساءل «لماذا، هذه المسكينة تريدهم!؟»

الخوف والجنس، حتى في الحالات الطبيعيّة، موجودان، متلازمان، مفترقان، والعنّة عند الرجل سببها الخوف، والبرود الجنسي عند المرأة له جذر سيكولوجي، وكذلك الحال في القذف السريع عند الرجل والمرأة، والحب، بحسب يونغ تلميذ فرويد، مشكلة إنسانيّة، لأنّه حبّ الذات في الآخر، والذات تتخفّى، في عمق النفس، فيظنّ المحبّ أنّ الآخر، أو الأخرى، مصدر هذا الحبّ، وهذا وهم يعيش عليه المحبّون، دونما انتباه! ولماذا الانتباه، إذا ما كانت الأنا العليا تتماهى في السعادة، دون أن يكتشفها، أو يعرف مصدرها، المحبّان؟

الحكيم بشير، في وهم التعقّل الجنسي، على ثقة أنّه عاقل جنسيًا، لذلك لا يقبّل فم رئيفة، بغير أن يتساءل عن سبب تعقّله، مثله في هذا مثل الأكثريّة من البشر، الذين لو تساءلوا لانتابتهم

الهواجس، ومنها التفكير الهاجسي حول القدرة الجنسيّة، التي لو فكّر فيها الرجل، لانبثق فورًا الوسواس عنده حول هذه القدرة، وكان الكفّ بعد الانتصاب، هذا الذي مبعثه الخوف الوسواسي، باعتبار الرجل هو الفاعل، والمرأة هي المنفعلة. وكان الحكيم بشير، رغم حكمته، ليس بعيدًا، في سريرته، عن هذا الوسواس، لذلك امتنع عن تقبيل فم رئيفة، بينما رئيفة، التي فقد عقلها السيطرة على عاطفتها، كانت تريد أن يقبّلها، أن يفترعها، كي تبلغ اللّذّة فترتاح، وهذا ما يدفعها إليه شعورها، الذي هو لاشعور، في مثل هيجانها النفسي.

وإذا كان التاريخ البشري، هو تاريخ الجنس، وبه بدأ مع آدم وحوّاء، فإنّ هذا التاريخ تراكمت فيه، عبر ملايين السنين، عقد نفسيّة لا حصر لها، عانى منها الناس معاناة شديدة السطوة، بعضها سخيف غاية السخافة، وبعضها مؤلم غاية الألم، وبعضها الثالث مضحك أغرب الإضحاك، بسبب من الخوف، والسريّة، والتستّر، والكبت الذي يعاني منه الكثيرون، وجلّهم من النساء، يعتبرون مراجعة الطبيب النفساني عيبًا من العيوب، لا يقدمون عليها إلاّ بعد تفاقم مرضهم النفسي، وبعد انتقام العاطفة المكبوتة لنفسها، مستعلنة في تصرّفات شاذّة، كانوا بغنى عنها، لو كان أصحاب هذه الحالات نبذوا الخوف، ومارسوا الأشياء بعفويّة، كما تمارسها الكائنات الأخرى، وفق منطق الطبيعة، وفيها، بغير اللجوء إلى الأفعال غير الصحيّة.

الحكيم بشير، الذكر، لم يستجب لنداء الأنثى، رئيفة. لم يقبّلها في فمها كما رغبت إليه. خاف العاقبة بدافع من العقل، بينما لم تخف رئيفة هذه العاقبة، لأنّها في حال من التحرّر العقلي

لا يبهظه الخوف، شأن الطفل الذي يطلب ما يريد، عندما يريد، قبل أن يعرف، أو يستوعب، معاني العيب، من نصائح ذويه ومعلّميه والناس من حوله.. فهذه النصائح، التي تغزل ما هو إثم، وما هو جائز وغير جائز، على مغزل الطفولة، تورث في اللاشعور الطفلي عاهات نفسيّة، تتمظهر بعد سنّ الرشد، وتتصاعد مع تصاعد سنوات العمر إلى أعلى. وبهذا يجني الآباء على الأبناء.. وبهذا جنى أهل رئيفة على رئيفة، فرفضت، وهي على البئر، مجرّد العناق، ضاغطة على عاطفتها الجنسيّة، التي أفلتت الآن، وانتقمت، طالبة القبلة وما بعدها، فاستهول الحكيم بشير الأمر، ولم يرتكب، كما استقرّ في لاشعوره التربوي، إثم القبلة على الفم، وما بعدها.

المثل الدارج يقول: «كلّ عقدة لها حلاّل»؛ وكان الحلاّل هذه المرّة الأرقش، حين تذكّر أنّ الطبيب نائل فتّاح أعطاه نوعين من الحبوب الطبّيّة، تتناولهما رئيفة عند الحاجة، فتهدأ وتنام، وكان الطبيب نائل، وهو الأستاذ، معجب إلى حدّ بعيد بالأرقش. وفي عيادته استقبل بعض المرضى من الصيّادين، وكان مع المعالجة يعطي الدواء، ويقول للأرقش ممازحًا:

ـ أنا أيضًا أطارد الذئب الأسود، ولكن بالدواء، وهو أضعف الإيمان.

وعندما أصيب الأرقش بالحمّى، واستعان بالطبيب ياسر لمعالجته، باعتباره طبيبًا للداخليّة والقلبيّة، أسف الطبيب نائل قائلاً:

ـ لا بأس! لا بأس يا صديقي، لكنّني، أنا أيضًا، طبيب،

وكان عليك أن تستدعيني، أن تخبرني، فرأي الطبيبين أفضل من رأي الطبيب الواحد.. ثمّ أنت، يا أرقش، مريضٌ نفسيّ أيضًا، مادام اصطياد الذئب الأسود صار عقدة لديك.. خذ.. هذا المبلغ الصغير، ثمن رصاص أنتم بحاجة إليه، لأنّكم تقوّصون على الفارغ، فالذئب الأسود يختبئ في عيادتي، وأنا أعالجه مجّانًا.. تعرف لماذا؟ لأنّ الذئب الأسود وهم، والقلاع التي تتحدّث عنها هي الحقيقة، هي الشرّ ومصدره معًا.

وكان الطبيب نائل، لدقّته الشديدة، قد أعطى الأرقش الدواء موزّعًا على ثلاث لفائف، أعطاها أرقامًا، من واحد إلى ثلاثة، وأوصاه أن تُعطى رئيفة اللفافة رقم واحد، ثمّ بالتتالي، وقال مداعبًا:

ـ أنت، يا الأرقش، الداء والدواء، أنت الذي جنّنت رئيفة، وكلّ جنونها تتحمّل وزره أنت، لذلك أحجب طلعتك البهيّة عنها موقّتًا!

الأرقش في اتّزانه، وفي خبرته الطويلة، وعيشه المديد مع الصيّادين والصيّادات، كان يتقن دوره، من حيث الحضور والغياب، الظهور والاختفاء، وكان على يقين أنّ غيره من يجب أن يعطي الدواء لرئيفة، وغيره هو الحكيم بشير، الذي تأنس به، وتثق فيه، لذلك استغلّ غفوة، هي النعاس من التعب، أغمضت فيها رئيفة عينيها، فرفع ستارة الخيمة، وقال للحكيم:

ـ جرّب، بكل ما أمكنك من مهارة، وحتى بإلحاح عند الضرورة، أن تحمل رئيفة على شرب كأس اللبن هذا.

تناول الحكيم بشير، بخفّة الرّيح، كأس اللبن وعاد إلى الخيمة، لكنّه سرعان ما تساءل: ماذا في هذا الكأس؟ وهل

يفعلها الأرقش؟ هل أنقذ رئيفة من الإعدام ليعدمها بنفسه؟ الثأر هو الثأر، وللأرقش عند رئيفة ثأر، هل يثأر منها بهذه الطريقة؟ هذا مستحيل؟ (وبعد هنيهة) لماذا هو مستحيل!؟ الرجل، كالمرأة، يغار أيضًا، ورئيفة تحبّ الأرقش، ومن المرجّح أن يكون هو أحبّها أيضًا، وبموتها ينتهي كل شيء، فلا تكون لي، ولا له، ويعود الصفاء الذي كان بيننا!

«رئيفة، يا رئيفة، يا أنثى بين ذكرين، يا امرأة بين صديقين، بموتك يتصالح الذكر مع الذكر، تعود المودّات بين الصديقين، تنتفي الغيرة بين محبّ كان، ومحب كائن، تكفّ عيناك الجميلتان عن خيانة الأمانة بينهما، الأرقش بعث بي إليك، والمتنبّي يقول: «كلّما عاد من بعثت إليها/ غار منّي وخان فيما يقول» لا! لن أكون الرسول الذي يغار، أو الذي يخون، وسأقبّلك، الآن، في فمك، كما طلبت، ولتكن قبلة الوداع!».

انحنى الحكيم بشير وقبّل رئيفة في فمها، وحين أفاقت مذعورة صاحت:

ـ ماذا تفعل؟

أدرك أنّ شهوته قد غلبته، وأنّه رسول خان الرسالة، وصار همّه أن تتذكّره، أن تأنس إليه كما كانت، أن تهدأ، أن تكفّ عن الصياح.. وأن تتجرّع الكأس المرّ الذي تجرّعه الكثيرون قبلها، وسيتجرّعه الكثيرون بعدها.. ولأنّها جائعة، فقد تجرّعت الكأس، وبعد دقائق همدت، تلاشت، أغمضت عينيها وغابت عن الوعي. عندئذ قال الحكيم بشير بغضب وحقد:

ـ فعلها الأرقش!

الصديقان عدوّان، الصيّادان اللذان يطاردان الذئب الأسود، طاردهما ذئب أشدّ سوادًا، اسمه الوسواس. الأرقش الذي لا يهاب الموت تهيّب جفوة لا يعرف سببها، الحكيم الذي يُهتدى بحكمته صار بحاجة إلى حكمة تهديه. الرجل الخلي عصب عينيه حقد رجل شجيّ، وراح الحقد يزداد كلّما ازدادت حمرة الغروب، فمن يقتل مَن؟ مَن ينتقم لرئيفة لأجل رئيفة؟ مَن يصوّب فوهة بندقيّته إلى صدر الآخر، بعد أن كانت فوّهتا البندقيّتين، مصوّبتين إلى أسياد القلاع؟ الحكيم اتخذ قراره: أقتل نفسي ولا أقتل الأرقش، والأرقش الذي أدّى واجبه كان ينتظر الحكيم، وهذا لم يعد يظهر، راح يوغل في الغابة اتّقاء للشرّ، والذين لاحظوا ارتباكًا ما لا يدرون سببه، انقسموا إلى فريقين: فريق متألّم لألم مجهول، وفريق شامت لشماتة مجهولة، لكن قمْطرة، بإحساسها النسويّ، حدست بأنّ واقعة حدثت، أو هي على وشك الحدوث، فراحت تحوم حول الأرقش، المغضي إغضاء لا صلة له بالحياء، كي تلفته إلى نفسها، كي تعتذر له عمّا بدر منها خلال المحاكمة وقبلها.. وكان الأرقش يودّ قمْطرة بكلّ ما فيها من عيوب، ويغفر لها أخطاءها وعيوبها، بل ويضحك، أحيانًا، لها ومنها، دون تحفّظ، ويقدّر شجاعتها وإخلاصها وتفانيها.. وفي المحكمة، عندما تطوّع للدفاع عن رئيفة، سمعها

تقول: «لِكْ العكروت» فلم ينزعج، وكانت مداخلاتها، ومشاغباتها، وتعليقاتها، سواء على أقوال وكيلة الادعاء دندنة، أو رئيس المحكمة أكرم الرمّاح، تسرّه بعفويّتها وصراحتها، لذلك ناداها إليه، وهو جالس على صخرة البئر الكبيرة، كي يعرف ما وراءها، وعندما سمعت مناداته جاءت مسرعة وهي تقول:

ـ نعم! هل من خدمة؟

قال دون أن يرفع بصره إليها:

ـ اجلسي!

جلست إلى جانبه وقالت:

ـ هذه البراءة التي صنعتها لرئيفة فاجأتني!

ـ أنا لا أصنع براءات.. هذا حكم المحكمة.

ـ ومن الذي لعب بالمحكمة، أنت أم أنا؟

ـ المحكمة لا يُلعب عليها.. هناك قاض ومستشارون ومدّعية عامّة وقوانين.

ـ وهناك دفاع قارح!

ـ كفّي عن الكلام، وهذا أفضل لك.

وقفت قمْطرة، وضعت يديها في خصريها، وبدأت الردح، قالت:

ـ وإذا لم أسكت، فماذا تفعل؟ وماذا وراء تهديدك؟ تتآمر هذه العاهرة عليك، وتطلق النار لتقتلك، ثم تدافع عنها؟ تلعب مع

طبيبك الخائب لعبة على المحكمة، وتحسب أنّني غافلة.. صدق من قال: الحب أعمى!

ـ عن أيّ حبّ تتحدّثين يا غبيّة؟ ولماذا هذه الغيرة؟

ـ لأنّني أحبّك!

ـ أنتِ تحبّينني؟

ـ «وأنت مش داري!»

ـ تمزحين، وفي هذا الوقت؟

ـ أنا لا أمزح، وهذا هو الوقت المناسب لمصارحتك بحبّي؟

ـ جننت؟

ـ ولماذا أجنّ، إذا كان لي ما لرئيفة!؟ أنا أيضًا أنثى ولي قلب.. وجمالي الخاصّ!

بهت الأرقش! هذا آخر ما كان يفكّر فيه، وهذا أغرب ما يسمع، وماذا عن الجمال الخاصّ، أيّ جمال هذا؟ ومن أدخل هذه الأفكار في رأسها؟ سألها وهو يكاد يضحك:

ـ وما هو جمالك الخاصّ ما شاء الله؟

ـ الجمال الغجري.. أما رأيت الفيلم الذي اسمه: «رأيت غجرًا سعداء»؟

نرفز الأرقش، قال في نفسه: «حسبتها تمزح فإذا بها تجد» نهض وهو يقول:

ـ اللعنة عليك، وعلى جمالك الغجري، وعلى كلّ غجر

الدنيا.. انهبلت يا قمْطرة؟ اغربي عن وجهي، اذهبي إلى الشيطان، لا أريد أن أراك بعد الآن، سمعت؟

نبرت:

ـ لم أسمع! لا! لم أسمع! ألست، أنا الأخرى، من لحم ودم؟ أليس لي عواطف مثل غيري؟ بلى، أنا أيضًا امرأة، والمرأة تريد الرجل، فما هو ذنبي إذا كنت أنت رجلي؟

ـ هكذا بكلّ بساطة؟

ـ نعم! هكذا، وبكلّ بساطة، وإذا كنت لا تحبّني فاكذب عليّ، قل لي أحبّك وهذا يكفي، اجبر خاطري على الأقلّ، لا تكن فظًّا معي، ارحمني، ارحمني! ارحم دموعي.. ارحم دموعي..

غامت الدنيا في وجه الأرقش، احتار فيما يقول، هزّته الرّيح، راحت به وجاءت، ماء النبع تموج، صخرة النبع تحرّكت، السماء تدنّت، هبطت، ضغطت على صدره، ضاق صدره، أحسّ بقمْطرة تمسك بثيابه، تتعلّق بها، تبكي، تقول له اشفق، اكذب، ألا أستحقّ حتى أن تكذب عليّ؟ تعرف ما معنى أن تحبّ المرأة الرجل، وتعرض حبّها على الرجل، فيركلها بقدمه، هي الأنثى، ويمشي؟

لم يمش الأرقش، عاد إلى الصخرة، وقف عند الصخرة، جلس، وضع رأسه بين يديه، لعن حياته، لعن عمره، لعن الكون، دهش من مفاجآت الكون.. لكنّه عندما رفع رأسه كانت قمْطرة قد توارت، تبخّرت، صارت سحابة فارتفعت إلى فوق،

غيّضت الأرض ففاضت معها إلى تحت، لا يدري، احتار، لم يعد يدري، وهو يريد أن يدري، أن يعرف أين ذهبت، أن يلحق بها قبل أن تؤذي نفسها، فهذه الغجريّة، تريد أن تكون سعيدة كالغجر، مثلما رأت في الفيلم السينمائي تمامًا، ترغب أن يكذب عليها، أن يقول لها أحبّك وهي تعرف أنّه يكذب عليها، فلماذا لم يكذب عليها!؟ تذكّر أغنية فيروز: «اكذب عليّ، الكذبة مش خطيّة» آه من الإنسان، ما أعجز الإنسان، ما أرمض عيشه، عندما لا يستطيع، حتى بالكذب، أن يسعد غيره!

هبط اللّيل، أشعلت النيران، وصلت سيّارة بيك آب محمّلة باللحم والرزّ والخبز والخضار، نزل السائق يسأل عن الأرقش، كان يحمل رسالة من الطبيب نائل فتّاح، فيها هذه الكلمات: «أنا معكم في كفاحكم ضدّ الذئب الأسود، بالمعنى الذي تعرفون به الذئب الأسود، وهذه مساهمتي المتواضعة في هذا الكفاح». طوى الرسالة، وضعها في جيبه، وإذا الحكيم بشير وقمْطرة يركضان ويصرخان: «ماتت رئيفة! قتلها الأرقش، قتلها الأرقش!» لكنّ الأرقش لم يتضعضع للنبأ، لم يعد يهمّه لا الموت ولا الحياة.. إنّه القدر، وماذا في وسعه أن يفعل للقدر؟ يعاند القدر؟ لا أحد يعاند القدر، ومهما يفعل الحكيم بشير، أو تفعل قمْطرة، فإنّه غير قادر سوى على الاستسلام لمشيئة القدر، وليفعلوا به ما يريدون.. لكنّ الطبيب ياسر خرج من خيمة رئيفة وهو يصرخ، راكضًا نحو النبع:

ـ رئيفة لم تمت، أقسم أنّها لم تمت، لا أحد يمسّ الأرقش، إيّاكم أن تمسّوا الأرقش، إنّه بريء يا ناس..

تراكض الجميع نحو خيمة رئيفة، سدّ الأرقش باب الخيمة بصدره وصاح:

ـ لا أحد يدخل سوى الطبيب ياسر، والحكيم بشير!

قالت قمْطرة:

ـ وأنا أيضًا.. لكن إيّاكم أن تمسّوا الأرقش، سواء ماتت رئيفة أم لم تمت.. العمى! هل يعقل أنّه أنقذها ليقتلها!؟

تعالت الأصوات:

ـ ولِمَ لا؟ أنقذها من الإعدام، وها هو يعدمها!

وقالت دندنة:

وهذا هو الدهاء، ولكن على مَن؟ الأرقش قاتل وقاتل وقاتل!

ـ وعليه أن يعترف! اعترف يا أرقش.. اعترف.

لكن قمْطرة خرجت من الخيمة مندفعة كاللبوة وهي تصيح:

ـ يعترف بماذا يا أوغاد، يا أولاد الزنى؟ رئيفة لم تمت، إنّها نائمة، مستغرقة في النوم بفعل الدواء، وهذا هو الطبيب أمامكم فاسألوه.

قال الطبيب ياسر:

ـ رئيفة أخذت حبوبًا مهدّئة وحبوبًا منوّمة، بحسب وصفة الطبيب نائل فتّاح، وهي نائمة وتنفّسها مسموع ومنتظم، هيّا إلى وراء.. كلّكم إلى وراء.

وخرج الحكيم بشير بدوره وهو يبكي، اندفع نحو الأرقش

وقبّله، قال له ظننت بك الظنون فسامحني؛ إلاّ أنّ الأرقش أدار ظهره ومضى دون أن يقول شيئًا، دون أن ينفعل، دون أن يعاتب، دون أن يلوم سوى نفسه.. لأنّه لم يكذب على قمْطرة!

«إنّها تحبّني، قال وهو ينأى عن النبع، تحبّني حتى ولو في الكذب، وهذا أغرب ما صادفت في حياتي.. قمْطرة غجريّة؟ والغجر سعداء؟ كيف وبأيّ حال هم سعداء؟ وهل مع الشقاء سعادة؟ المثل يقول: «الشحّاد له نصف الدنيا» إلاّ أنّ قمْطرة لا تشحد، والغجر يعزفون، يرقصون، ينجّمون، يترحّلون، يتعاطون بعض المهن، ومنها طبابة الأسنان، إلاّ أنّهم، أو الأقلّيّة منهم، يأنفون من الشحادة.. وقمْطرة هذه قد تقتل، قد تغنّي وترقص، لكنّها لا تشحد أبدًا. إنّها امرأة ولها قلب، وهذا القلب يخفق كغيره، وهي أنثى ولها ما للأنثى من أحاسيس ورغبات، وقد سهرت عليّ، قامت بدور الممرّضة كأنّها خرّيجة معهد التمريض، مغدقةً عليّ من حنانها فيضًا يفوق المعهود.. فهل فعلت كلّ ذلك لأنّها تحبّني؟ وهل تركت ربعها والتحقت بالغابة لأجل مطاردة الذئب الأسود أم مطاردتي؟ لعلّها، لأجلي، فعلت الاثنين، ولأجلي لم تدع صقرش يمسّها، وأنا لن أمسّها ولو نذرت روحها لأجلي، إنّما سألاطفها، سأكذب عليها كما طلبت منّي كي تعزّي نفسها، وما كنت أتوقّع يومًا أن أصادف امرأة تعرف أنّني لا أحبّها، وتناشدني حدّ التضرّع أن أكذب عليها وأحبّها، أن أقول لها أحبّك، مع علمها أنّني أكذب، وأنّها، هي تتعزّى، وتكتفي من الحبّ بوهم الحبّ كي تتعزّى! ما أعجب الإنسان، ما أعجب النفسيّة الإنسانيّة، في تقلّبها، تنوّع مشاعرها، أفعالها، ردود أفعالها، مطالبها، أشواقها، عواطفها، وما أحوجها إلى الرحمة،

إلى المواساة، إلى المسح على جراحها براحة الحنان.. ولشدّ ما كنت قاسيًا، هازئًا، ضاحكًا من المحنة العاطفيّة في صدر قمْطرة، التي ربما كانت تحملها منذ التقيتها قبل سنوات، واستعلنت الآن، برغمها، دون إرادتها، فوق إرادتها، أقوى من إرادتها.. ولمّا جوبهت بالرفض، رضيت في أن أكذب، أحبّها وأكذب عليها، في هذا الحبّ الذي يرضى ولو بالكذب!».

وكيلة الادّعاء، دندنة، لحقت بالأرقش إلى الغابة، بحثت عنه، نادته، عرفت مكانه، ذهبت إليه، تهيّبت الاقتراب، أدار الأرقش وجهه، في غبش الليل، وعلى أضواء النيران المشتعلة، مستعيذًا بالله من شرّ هذه الليلة.. سألها بجفاء:

ـ ماذا تريدين؟

أجابت دندنة:

ـ التحدّث معك ولو لدقائق.

ـ أما كان الأفضل أن تؤجّلي حديثك إلى الغدّ؟

ـ وجدت من المناسب، وأنت في وضعك هذا، أن أتحدّث إليك الليلة؟

ـ وماذا سيقول الذين هناك عنك؟ لحقت بالأرقش إلى الغابة!. وماذا يفعلان في الغابة؟! ألا تخشين أن يُساء فهمك مادّيًا أو معنويًّا؟ قولي ماذا تريدين بسرعة واختصار.

ظلّت دندنة واقفة، دون حراك، دون كلام، دون اكتراث، في محاولة لإشعار الأرقش أنّ الذين هناك لا يهمّونها في شيء،

وأنّها لا تخشى منه مادّيًا، ولا تسأل عن الآخرين معنويًا. . فهي، في المركز الذي تشغله كمدّعية عامّة، لا تحابي ولا تجامل.

قالت:

ـ جئت مواسية، كما يليق بزميلة تجاه زميل.

قال:

ـ شكرًا! وبعد؟

ـ أنا لست ضدّ رئيفة شخصيًّا.

ـ وحتى لو كنت ضدّها، فماذا كان في يدك أن تفعلي أكثر ممّا فعلت؟

ـ كنت أقوم بواجبي.

ـ وهل أنا بحاجة إلى هذه الزيارة لأفهم ذلك؟

ـ لا! لست بحاجة، لكنّك كنت في الدفاع، وأنا في الادعاء، ووجدت من المناسب إزالة أيّ سوء فهم كان بيننا.

ـ ليس هناك سوء فهم من طرفي!

ـ ولا من طرفي. إلاّ أنّني. . أنا دندنة، كنت أعرف لعبة الأرقش سلفًا!

ـ هذا لا يسمح لك أن تكوني وقحة مع الطبيب الشاهد.

أنا وقحة؟

ـ وشرّيرة أيضًا. . لماذا تكرهين رئيفة؟ لماذا تكرهونها يا ناس!؟

ـ أنا ما جئت لأثير أعصابك، هذا أوّلاً، وثانيًا جرى الاتفاق بين رئيس المحكمة وبيني على إطلاق سراح المتهمة فدوى.

ـ هذا من شأنكما وليس من شأني.

ـ ولأنّه من شأننا فقد أطلقنا سراحها.

ـ وأين المشكلة؟

ـ في قمْطرة!

ـ وما علاقة قمْطرة؟

ـ قمْطرة، يا زميلي الأرقش، تبدو وكأنّها طوّبتك على اسمها!

ـ لا أحد يستطيع أن يطوّب أحدًا.. قمْطرة زميلة، ولها عليّ، كما على الجميع، حقّ الزمالة..

ـ فقط لا غير!؟

قال الأرقش مغضبًا:

ـ أنصحك، إذا ما كنت تقبلين النصيحة، أن تقولي ما عندك بغير غمز أو لمز. قمْطرة زميلة مثلك ومثل رئيفة وفدوى وكلّ الأخريات.. هذا جوابي ومع السلامة.

استاءت دندنة، قالت في نفسها: «وغد!» غير أنّ كلمة وغد لا تحلّ الإشكال، لا تردع قمْطرة عنها وعن فدوى وعن الصيّادات اللواتي لا يعرفن من تكون قمْطرة، هذه الغجريّة التي تتباهى، بدل أن تخجل، لكونها غجريّة، ولكونها كما يشاع على علاقة ما بالأرقش، وهي مع الأرقش أو دونه قويّة، فاجرة، قادرة أن

تقتل، حين تُعادي وتصمّم على أن تقتل، فكيف السبيل لوقفها عند حدّها؟

قالت فدوى الخائفة، التي أرسلت دندنة إلى الأرقش، والتي تعرف أنّ قمْطرة لا تهاب سوى الأرقش:

ـ ظنّي، يا عزيزتي دندنة، أنّ هناك علاقة ما بينهما، وإذا كان قد ردّك ولم يستجب لك، فلأنّه يحمي قمْطرة، بعد أن تذوّق طعمها!

ـ طعمها!! وهل لقمْطرة طعم خاصّ؟

ـ طعم الغجريّة!

ـ وكيف يكون طعم الغجريّة؟

ـ أنا لست رجلاً لأعرف، ولم أكن شاذّة يومًا، أو خالطت الغجر يومًا، إلاّ أنّ الذي يقال إنّ الغجريّة شعلة من نار.. هل تعرفين ما قاله الأعشى ميمون عن النساء اللواتي من هذا الصنف؟ لا؟ إذن اسمعي: قال الأعشى ميمون:

قالت أميمة لما جئت زائرها   ويلي عليكَ وويلي منك يا رجل!

قالت دندنة:

ـ فظيع!

قالت فدوى:

ـ لكنّه واقع!

ـ وكيف عرفت؟ جرّبت؟ حدّثيني عن تجربتك، أريد أن أعرف.

قالت فدوى بخبث:

ـ أنت، يا دندنة، لك عليّ يد بيضاء، ومقابلها لا مانع عندي من إطلاعك على كلّ التجارب بين النساء والرّجال، بمن فيهم الغجر، غير أنّك وكيلة ادّعاء، ولا يجوز..

قالت دندنة:

ـ يجوز.. يجوز. أنا في المحكمة شيء، وخارج المحكمة شيء آخر.. امرأة، أنثى، مثلك ومثل كلّ الإناث. تحدّثي وأفيضي.. إنّني أسمع وأرتعش!

ـ خوفًا؟

ـ خبيثة! هيّا تحدّثي..

ـ على شرط!

ـ وما هو شرطك؟

ـ أن يُطلق سراح نافع الداري.

ـ المتهم بالتعاون مع أزلام القلاع؟

ـ التهمة باطلة، لفّقتها قمْطرة..

ـ سأنظر في هذا غدًا.

ـ بل الليلة!

ـ ولماذا هذه العجلة؟

ـ لأنّنا..

ـ ستهربان معًا! وهذه الليلة بالذّات! وأكون أنا المسؤولة، أليس هذا ما تنويان؟

ـ وماذا يفعل المهدّد بالإعدام؟

ـ إذا كان خائنًا فليعدم جزاء خيانته..

ـ وماذا تقولين لو كان الذي تحبّينه مكان الذي أحبّه؟

ـ أقول فليعدم..

ـ والصداقة؟

ـ لا صداقة مع الخيانة..

ـ خذي إذن!

لم تأخذ دندنة، لم يصل خنجر فدوى إليها، كان ميلاد يمسك، بحركة أسرع، ذراعها، يلوي الذراع بقوّة أرغمتها على ترك الخنجر بيده، ولمّا فشلت محاولة القتل، قال لها:

ـ لماذا القتل؟ لأجل الهرب...؟ هيّا اهربي إذا استطعت، نحن أطلقنا سراحك، لكنّنا وضعناك تحت المراقبة! وقد خدعت دندنة، لكنّك لا تستطيعين خداع رجال الحرس.

ـ أريد أن أرى الأرقش.

ـ الأرقش غير موجود.

ـ في هذه الحال أرى الحكيم بشير.

ـ الحكيم بشير في خيمة رئيفة المريضة.

ـ إذن دعوني أقابل وكيلة الادّعاء دندنة.

ـ دندنة ترفض مقابلتك.

ـ مَن هنا إذن؟

ـ مغاور السمندي، محامي الدفاع!

ـ لا بأس، سأرجوه أن يدافع عنّي.

ـ الدفاع يكون في المحكمة.. جرمك محاولة قتل دندنة، والشروع بذلك، وضبطك بالجرم المشهود، والخنجر بيدك، الذي صار في التحريز كأداة جرميّة.

ـ مع من أتكلّم؟ أريد أن أعرف مع مَن أتكلّم، وما هي صفته.

ـ مع رفعت دَنَشْ، المستشار في المجلس العدلي.. ماذا تريدين؟

ـ الاعتراف!

ـ الاعتراف عند التحقيق، وليس قبله.. لماذا حاولت قتل دندنة؟ ألم تكن طيّبة معك؟ ألم تصادقك وتساعدك؟ عمّ كنتما تتحدّثان؟

ـ عن قمْطرة الغجريّة!

ـ بالخير أم بالشرّ؟

ـ اسألوا دندنة.. أنا تعبت، تعبت.. لماذا هذا الأخذ والعطاء إذا كان التحقيق لم يبدأ بعد.. ارحموني.

صاحت قمْطرة التي وصلت لتوّها:

ـ لا رحمة مع الخيانة يا قحبة!

صاح الأرقش الذي كان قادمًا من بعيد:

ـ ماذا يجري هنا؟ ومن هي الخائنة ومن هي القحبة؟

ردّت قمْطرة:

ـ ومن ستكون غيرها؟ فدوى، يا الأرقش، هي الخائنة والقحبة، وقد حاولت طعن دندنة بخنجر، لولا أنّ تدخّل ميلاد وأنقذ دندنة.

صرخ الأرقش:

ـ جميل جدًّا ما أسمع! يبدو أنّ الأمور أفلتت من يدنا تمامًا.. سباب، شتائم، خيانة، محاولة قتل، فشل المحاولة، ضبط الأداة الجرميّة.. وبعد؟ ماذا بعد؟ لماذا لا تجيبون؟ ما بالكم خرستم!؟ هل تحسبون أنّ في وسع كل واحد منكم أن يفعل ما يريد!؟ هذا سيصير، ولكن بعد موت الأرقش، إلاّ أنّ الأرقش لن يموت بالسهولة التي تتصوّرون..

توقّف قليلاً، رزّت عيناه نارًا، أخذته رعدة من فرط غضب، نبضت العروق في رقبته، تغيّر وجهه، انقلب، اربدّ، تحوّل إلى نمر، انقضّ على من حوله كنمر، كشّر عن أنيابه.. هزّ قمْطرة من كتفها بيد، وأمسك بالثانية كتف فدوى وهزّها مخاطبًا الجميع:

ـ نحن في غابة.. لكنّكم، كما يبدو، لا تعرفون قانون الغابة. رأيتم محكمة، ومدّعية عامّة، ومحامين، وشهودًا، وسمعتم تنكيتًا وضحكًا ومداخلات من هذا الجانب، وهتافات

من الجانب الآخر، وشغبًا وفوضى، واختلاطات شوهاء، وكلامًا سفيهًا، وألفاظًا بذيئة، وتحرّشات دنيئة، وتوريات معيبة، حول النون والرّاء، وغير ذلك. . فتصوّرتم أنّ الأشياء سابت، ولن يكون ضابط لها، أو رادع يردع الرقعاء، أو بأس شديد يكفّ الخلعاء عن الخلاعة، والماجنين عن المجون! غير أنّ هذا كلّه وهم، فنحن لا نزال هنا، والأمور لن تفلت خيوطها من أصابعنا. . لذلك على دندنة أن تعرف من هي فدوى، وعلى فدوى أن تتّقي تفاهات قمْطرة، وعلى قمْطرة أن تترفّع عن بذاءاتها ضدّ فدوى، وأن يعمّ الهدوء ويتفرّق الجمع، ونعرف من ميلاد ماذا جرى، وكيف جرى!

روى ميلاد الحادثة كما وقعت، فقال الأرقش:

ـ نحن، يا فدوى، نعرف من هي فدوى، وما ارتكبت من خيانة الجسد والشرف، وقد أُطلق سراحها لأنّ الحساب ليس معها، بل مع نافع الداري عشيقها، الذي قبض ثمن خيانته من الشادوف، عميل القلاع وأسيادها، لكن أن تستغلّ الحرِّيَّة، التي جعلناها تتمتّع بها، لقتل دندنة! فهذا جرم، هذه محاولة قتل، عقابها المؤبّد، فماذا تقولين يا فدوى؟

ـ أطلب العفو منك، وأتوب على يديك، فارحمني!

قال الأرقش التوبة لله وحده، سبحانه وتعالى، والرحمة منه أوّلاً وأخيرًا، لكنّني، بصرف النظر عن جرمك أطلق سراحك. . وهذه هي رحمتنا هذه المرّة، على شرط أن تكون دندنة موافقة.

قالت دندنة:

ـ أنا موافقة، إذا كان الآخرون موافقين!

تعالت الأصوات:

ـ موافقون، نحن أيضًا!

قال الأرقش:

ـ أنت الآن مطلقة السراح يا فدوى.. هذا قرار الجميع.. وفي وسعك أن تبقي بيننا، أو تغادرينا، لكن تذكّري شيئًا واحدًا، هو أنّنا نستطيع أن نطالك ولو كنت في طبقات السحاب!

ـ ١١ ـ

أفاقت رئيفة بعد نوم طويل، النوم ما كانت تحتاجه، وقد استغرقت فيه بهناءة تامّة. . وجاء الطبيب ياسر زائرًا، لم يقل لها إنّه طبيب، لم يجسّ نبضها، لم يضع كفّه على جبينها، سألها فقط: «ماذا أكلت اليوم؟» لم تجب على سؤاله، وكأس اللبن لا يكفي، فاقترح على الحكيم بشير، أن تتناول مرق اللّحم وقليلاً من اللّحم، وأن تشرب الحليب، مرّات في اليوم، بدل اللّبن، وقال له خارج الخيمة:

ـ الجزع على المريض، لا يشفي المريض، وقد كنت جزعًا أكثر من اللازم، حتى ظننت أنّها ماتت، وانتشر الخبر، وتراكض الناس، حتى بكى بعضهم، مع أنّها كانت نائمة. . والنوم مع التغذية هما دواؤها، وهذه الحبوب التي أعطاني إيّاها الأرقش، ليست من صنع الأرقش، الأرقش لا يصنع حبوبًا، إنّما تذكّر أنّ الطبيب نائل أعطاها له، ومن دقّة هذا الطبيب الرائع، أنّه وضع الحبوب في ثلاث لفافات، ورقّمها. . ومن الطبيعي، طبّيًّا، أن تكون اللفافة الأولى هي الأقوى مفعولاً، أن تجعلها تنام، وبعمق، فور تناولها. وكل ما فعله الأرقش أنّه وضع حبوب اللفافة الأولى في كأس من اللبن، وسقاها إيّاها، فنامت فورًا،

كالقتيل كما يقول المثل، وهذا النوم أفادها جدًّا.. وليتك تأنّيت، كعادتك، قبل أن تصرخ ماتت رئيفة.

قال الحكيم بشير مقاطعًا:

ـ الحقّ معك يا طبيب.. كنت جزعًا، تصرّفت بطيش، لأنّ الأرقش لم يشرح لي ما شرحته، أنت، الآن.

ـ الأرقش يحترم الطبيب والطبّ، لذلك ترك الأمر لي، ويبدو أنّني قصّرت في مهمّتي.. أعتذر.. إليك هاتين اللفافتين: تعطيها، غدًا، اللفافة الثانية، وهي أخفّ من الأولى، وتعطيها الثالثة بعد غد، وهي أخفّ من الثانية، لكنّ المريضة ستنام بعمق، وتستغرق في النوم، فلا تقلق عليها..

قال الحكيم حييًا:

ـ لن أقلق أبدًا، ما حدث لن يتكرّر، وإنّي لآسف جدًّا.

ـ اعذرني يا حكيم بشير، إذا تدخّلت في خصوصيّاتك.. هل تحبّ رئيفة إلى هذا الحدّ؟

ـ المجنون!؟ قلها ولا تسل عنّي.. لن أنزعج بعد أن فضحت نفسي.. ما كان يجب. ما كان يجب، وأنا في هذا العمر!! غير أنّ الذي حدث حدث، ولا فائدة من الندم، الذي سأكابده طويلاً!

عاد الحكيم إلى الخيمة، نظر في وجه رئيفة الذابل، ابتسم لها، أخذت يده وابتسمت طيف ابتسامة، دون أن تقول شيئًا،

لم تكن لها القوّة لتقول شيئًا.. الحبوب كانت بالغة التأثير، شلّت قدرتها على التفكير بما كانت تفكّر فيه عقب خروجها من المحكمة.. وهذا ما ابتغاه الطبيب نائل: أن تنام، وتنام، وأن تأكل ولو قليلاً، وبعد انتهاء الحبوب المهدّئة والمنوّمة، يأتي دور المقوّيات، وهذا كفيل به الطبيب ياسر، الذي يلازمها، من غير أن يدعها تعرف أنّه طبيب يلازمها.. وبالنسبة لليوم الأوّل، فإنّ كلّ شيء يسير على النحو المطلوب، فالحكيم بشير يضع راحته على جبينها، على شكل ملاطفة، لمعرفة ما إذا كانت هناك حرارة.. هذا جيّد، لا حرارة، ولكن لا شهيّة للأكل. لا بأس، الحليب، مرق اللّحم، نتف من اللحم، في الأيّام الأولى، تكفي.. وبعد أن أخذت كأس الحليب، وفيه الدواء، وشربت مرق اللّحم، أغمضت عينيها وراحت في سبات عميق، فتركها الحكيم بشير وخرج..

كان، ليلة أمس، يسمع الضوضاء واللغط، وأصغى إلى صوت الأرقش وما فيه من غضب وانفعال، إلاّ أنّ الحكيم بشير لم يفهم شيئًا ممّا يقال، تاركًا كلّ شيء إلى حينه.. وفي ضحى اليوم، وبعد أن نامت رئيفة، خرج من الخيمة وأسدل الستارة وراءه، موصيًا الحارس، بتشديد، ألاّ يدخل الخيمة، ولا يسمح لأحد بدخولها.. وبعد أن خرج الحكيم، واستنشق الهواء الرهو، المنعش، عذب النسمات، احتار إلى من يتوجّه، ليعرف ما جرى ليلة أمس، فقد كانت منطقة النبع خالية، ولم تكن ثمّة قمْطرة، أو ميلاد، وحتّى صقرش اختفى، مع أنّه لا يفيده في الذي يريد أن

يعرفه.. وبعد لأي قصد الطبيب ياسر، الذي كان، في خيمته التي من أغصان الذرة، يعالج مريضًا.

انتظر الحكيم بشير، دون أن ينفد صبره، وبعد المريض المعالج، جاء مريض آخر للعلاج، ثم آخر.. والحكيم يشير إلى الطبيب أن أكمل، لأنّه يعرف أن يصبر، بعد أن أتقن فنّ الصبر في الغابات، خلال استماعه إلى شكاوى الصيّادين والصيّادات ومشاكلهم وشكاواهم التي لا تنتهي!

أخيرًا، دخل خيمة الطبيب ياسر، ودون مقدّمات طلب منه أن يقصّ عليه، من غير تعليق، كل ما جرى وما قيل. وطالت الجلسة بينهما، دون أن يقول الحكيم بشير كلمة واحدة.. كان يكتفي بهزّ رأسه، وترتسم على محيّاه أمائر ارتياح أو انزعاج، ولمّا قال الطبيب ياسر إنّ الأرقش أطلق سراح فدوى، تنهّد الحكيم وسأل:

ـ ألم يأت الأرقش على ذكري؟

ـ أبدًا..

قال:

ـ شكرًا!

وخرج، قاصدًا صخرة النبع، حيث جلس وحيدًا، مرتاحًا لهذه الوحدة، التي هي، في رأيه، عبادة. وفي الغابة، تصير الوحدة مضاعفة، والعبادة فيها مضاعفة، والراحة فيها مضاعفة

أيضًا. . الأرقش، كما قال الطبيب ياسر، كان يصرخ في الذين تحلّقوا حوله: نحن في الغابة، وللغابة قانونها، فهل نسيتم هذا؟ هل حسبتم أنّ الأمور أفلتت من أيدينا، فراح كل منكم يفعل ما يريد، ساعة يريد؟ لا! أنتم مخطئون، كلّ الأشياء لا تزال في أيدينا، وستبقى في أيدينا، بحسب قانون الغابة ومجريات الأمور، والتصرّفات المنضبطة. . التي نسهر على أن تبقى منضبطة، والويل لمن يزرع، أو حتى يخطر في باله أن يزرع الفوضى، أو يخرج على قانون الغابة!

تساءل الحكيم بشير: «ما الذي يقصده الأرقش بقانون الغابة؟ حتى الآن كان قانون المدينة هو قانون الغابة، والمحكمة تقيّدت بأصول المحاكمات، السائدة في المدينة والغابة، فما الذي استجدّ؟ ماذا يدور في رأس هذا الأرقش، الذي أرغى وأزبد، وأنذر وتوعّد، ثمّ أطلق سراح فدوى، بعد حصوله على موافقة الجميع، بمن فيهم دندنة!؟ هل خافت دندنة؟ وخاف رئيس المحكمة والمستشارون، والأرقش يعدّد المخازي، والنكات، والمشاغبات التي حفلت بها الجلسة، من الذين كانوا لا يتقيّدون، أو يراعون حرمة الجلسة والقانون والمحكمة وهيئتها؟ ربّما! ربما! وإلاّ ما زمجر الأرقش كاللّيث، وكشّر عن نابيه اللذين، في بياضهما نصع النهار، وفي سوادهما فحمة اللّيل. . أمّا أنا فقد كنت حاضرًا غائبًا، كنت مشغولاً برئيفة والإعدام والبراءة، إنّما لم أغفل عن الشرّ، ولم أسلّمه نيري، ولا قصصت له جناحي النسر اللذين على كتفي، منذ دخلت الغابة،

وكافحت ضدّ الفساد في الغابة، والله يشهد على ما في سريرتي.

رفّت هداهد فوق شجرة الصنوبر وصاء أحدها:

إن أكن سقتُ في غرامك شرًّا فالبرايا مطيّة للشرورِ

صاء الآخر:

غير أنّي أجني من الجيف الجرداء، مهما قذرتْ، شهدَ قفيرِ

صاء الثالث:

هيكل الإثم لم أبح لك ذلّي، شبح الرق، لم أسلمك نيري!

رفع الحكيم رأسه إلى أعلى وقال:

ـ شكرًا لك أيّتها الهداهد، فقد عبّرت عمّا في ضميري.

وجاءه صوت من وراء:

ـ ضميرك أنقى من ثلج صنّين أيّها الحكيم، لكنّك منشغل بالحبّ والحكمة، وهل الحبّ إلاّ الحكمة!؟ امض في الطريق الذي سلكته.. وصدّقني إنّه الطريق المستقيم.

كانت هذه قمْطرة، وكانت مستاءةً قمْطرة، لِمَ يا قمْطرة؟ سأل الحكيم بشير:

ـ لأنّني غجريّة!

ـ وماذا لو كنت غجريّة؟

ـ الأرقش لا يحبّ الغجريّة!

ـ وما همّك من حبّه أنت؟

ـ الذي همّك، يا حكيم، من حبّ رئيفة!

ـ فهمت!

ـ وإذا فهمت، ماذا بشأني؟

ـ وماذا تريدين منّي بشأنك؟

سكتت قمْطرة. ضحك الحكيم بشير، قال:

ـ أن أقتل لك الأرقش؟

ـ وأن أقتلك لأنّك قتلت الأرقش؟

ـ وتفعلينها؟

ـ أقسم أَنّي أفعلها!

ـ وتذهبين إلى الإعدام؟

ـ فداء الأرقش.

ـ أو تجنّين مثل رئيفة؟

ـ فداء الأرقش.

ـ وهل يعرف الأرقش؟

ـ يكفي أنّني، أنا، أعرف!

أضافت:

ـ إنّني، يا حكيم، أحبّ الأرقش وأكرهه..

ـ هذا مفهوم!

ـ ما هو الذي مفهوم؟

ـ الكره، يا قمْطرة، هو الوجه الآخر للحبّ.

ـ في أيّ مذهب هذا؟

ـ في مذهب فرويد.

ـ وهل فرويد صيّاد، ومعنا في هذه الغابة!؟

ـ لا.. طبعًا، إنّه عالم نفس شهير!

ـ إذا رأيته قل له يلحس قفاي.. قمْطرة تحبّ، تكره، تحبّ!

ـ لكن ما تقولينه فلسفة.. هذا ما يسمّونه نَفْيَ النفي!

ـ أنتَ، عدم المؤاخذة، تخرّف يا حكيم!

ـ أنا أخرّف يا قمْطرة؟

ـ وأنا أعرف الفلسفة يا حكيم؟ إنّك تضحك عليّ، لكن قمْطرة لا يُضحك عليها!

قال الحكيم جادًّا:

ـ الفلسفة كلمة كبيرة، خطيرة، عند أكثر الناس.. لكنّ الفلاسفة أخذوا فلسفتهم من الناس، ولن أضرب لك الأمثال،

لأنّها غير ضروريّة.. مكسيم غوركي كان تلميذًا مشرّدًا، وكان يحوم حوله رقيب سرّيّ في أمن القيصر، وقد حدّثه عن القيصر، والخيط الذي يطلع منه، ويدخل، بعد ذلك، في الشعب كلّه، فيربطه به ربطًا محكمًا.. وفجأة صاح الرقيب، وهو يهوي بقبضته على المائدة: أنتم، الثوريّين، تعملون لقطع هذا الخيط، قُطعت أيديكم.. ولمّا ظهر الفيلسوف نيتشه، ودعا إلى القوّة، ونقاء الدم، وتصنيف البشر، وساند هتلر، أو استند هتلر إلى فلسفة نيتشه، تذكّر غوركي رقيب الأمن في مدينة قازان.

أضاف الحكيم بشير:

ـ أنت، يا قمْطرة، تقولين في نفسك: «ما لي ولهذا الكلام كلّه؟ الحكيم أصابه الخرف كما لاحظت قبل قليل» لا! أنا سليم العقل، وما أردته، من حكايتي، هو أنّ الشعب منبع كل فلسفة.. وأنت قلت عبارتين هما من الفلسفة، أولاهما: «هل الحبّ إلاّ من الحكمة؟» وثانيهما «قمْطرة تحبّ، تكره، تحبّ».

ـ يعني أنّني أفهم!

ابتسم الحكيم وقال:

ـ تفهمين حتى بالفلسفة، ولكن بشكل عفويّ!

ـ أفهم بالفلسفة وأنا غجريّة؟

ـ أليس الغجر بشرًا من البشر؟

ـ ولماذا لا تقول هذا للأرقش؟

ـ أقول له ما يعرفه؟ أنت عزيزة جدًّا على الأرقش، إلاّ أنّ المعَزّة شيء والحبّ شيء آخر.. الأرقش أعطى نفسه لمطاردة الذئب الأسود، وسيموت في سبيل ذلك، دون أن يكون له من الوقت حتى للتفكير بنفسه.. الأرقش مظلوم، وممّن؟ من أقرب الناس إليه، منّي أنا! لقد أنقذ رئيفة من الإعدام، وأنا اتهمته بأنّه يريد إعدامها بطريقة أخرى.. بالسم الذي وضعه في كأس اللبن، مع أنّه وضع الدواء في كأس اللبن!

قالت قمْطرة:

ـ لا أصدّق ما تقول، أنت الحكيم، تتهم الأرقش صديقك، بأنّه وضع السمّ في اللّبن؟

ـ نعم أنا.. قلت ذلك بيني وبين نفسي.. وأنتِ قلتِ: «هل الحبّ إلاّ من الحكمة!؟» وقد أصبت: الحبّ من الحكمة، ومنذ أحببت رئيفة أخذ حبّي للأرقش بالتناقص، وعندما تناقص الحبّ تناقصت الحكمة.. أضعت الحكمة!

ـ الغيرة، يا حكيم، أكلت الحكمة.. الحقّ على الغيرة إذن.. أنت كنت تعرف أنّ رئيفة تحبّ الأرقش، ولأنّها كانت تحبّه فقد داخلتك الغيرة منه.. أنا لست رجلاً، ولا أعرف كيف يغار الرجل من الرجل، لكنّه يغار.. وأنت، رغم حكمتك، تغار كرجل، فإلى أين ستودي بك هذه الغيرة؟ إلى قتل الأرقش؟ ما أظنّ. إلى قتل رئيفة؟ ما أظنّ أيضًا.. أنت تتعذّب، وعذابك سيطول، لكنّنا لن نبقى معًا، وعندما نفترق قريبًا، سيذهب كلّ منّا في طريق!

سأل الحكيم بشير ملهوفًا:

ـ هل قال الأرقش هذا؟

قالت قمْطرة:

ـ الأرقش لا يقول، وأنت أعلم به منّي، لكنّه كالمقامر، يلعب الآن بكلّ رصيده دفعة واحدة!

ـ إنّ بعض الظنّ إِثم يا قمْطرة! وقد ارتكبت، أنا نفسي، هذا الإثم ليلة أمس.

ـ هذا الذي أقوله ليس ظنًّا، إنّه يقين.. الأرقش يلعب آخر أدواره على المسرح الذي أنشأه بنفسه.. ومن دلائل ذلك ثورته العنيفة أمس، الثورة التي كانت تتأجّج في صدره كانت غير طبيعيّة.. وإطلاقه سراح فدوى كان غير طبيعي أيضًا.. وفوق ذلك سمعت خبرًا بلبلني.. الأرقش نفسه سيتولّى الادعاء العام!

ـ ودندنة؟

ـ تنازلت!

قال الحكيم بشير آسيًا:

ـ أخبارك، اليوم، رهيبة يا قمْطرة.. تعرفين ماذا قال المتنبّي؟ قال: «طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ/ فزعت فيه بآمالي إلى الكذب». أنا أيضًا، أفزع بآمالي إلى الكذب ممّا أسمع.. وإذا

الأرقش.

قالت قمْطرة:

ـ وما علاقة رئيفة بما نحن فيه؟

ـ إنّه يحبّها!

ـ قلت لك إنّ الأرقش لا وقت لديه للحبّ.. إنّه شبّه المحكمة بالمسرح. وفعلاً كانت المحاكمة مسرحيّة، والأرقش مصمّم الآن على وضع خاتمة لهذه المسرحيّة..

ـ وهل لمّح ولو تلميحًا حول هذه الخاتمة.

ـ أبدًا!

ـ أين كان قبل وقوع محاولة قتل دندنة؟

ـ في الغابة!

ـ وما أدراك؟

ـ ذهبت إليه، وتحدّثت معه.. أنا الوحيدة التي تجرّأتْ على ذلك.

ـ كان هادئًا أم ثائرًا؟

ـ وهل تعرف هدوء الأرقش من ثورته يا حكيم؟ دندنة، عندما انتشر خبر موت رئيفة، وأنّ الأرقش هو من وضع لها السمّ في اللّبن، قالت بأعلى صوتها: الأرقش قاتل وقاتل وقاتل!

ـ هذا هو السبب في عزلها من الإدّعاء.

ـ لا! ليس هذا.. كان الأرقش يضحك لأنّني فاتحته بحبّي له.

ـ وهل تحبّينه فعلاً؟

ـ بكلّ ذرّة في جسمي وروحي.

ـ يا للجنون! ماذا حدث لك يا قمْطرة؟

ـ لم يحدث شيء.. كلّ ما في الأمر أنّني أحببته وفاتحته بحبّي.

ـ وبماذا أجاب؟ تندّر عليك لأنّك غجريّة؟

ـ وهل الغجر موضع تندّر؟

ـ لا! أبدًا، ولكن هذه مفاجأة.. مفاجأة حقيقيّة.. أيّ شيطان سكنك، وفي هذا الوقت بالذّات؟

قالت قمْطرة بهدوء طبيعي:

ـ الشيطان الذي سكنك يا حكيم، هو نفسه الذي سكنني.. أنت تحبّ رئيفة، وتجد ذلك طبيعيًّا، وأنا أحبّ الأرقش وأجد ذلك طبيعيًّا. الحبّ، يا حكيم، ليس له وقت، إنّه قضيّة كلّ وقت، وهو لذيذ لذيذ. بذمّتك! الحبّ لذيذ أم لا؟ فإذا كان لذيذًا كالطعام، وكان الطعام أصنافًا، كان علينا، ولو من باب التجريب، أن نتذوّق كلّ أصناف الحبّ أيضًا.. ما رأيك

بالصنف الغجري؟ تذوّقته؟ هل تريد أن تتذوّقه حلالاً؟ تزوّجني إذن . .

قال الحكيم:

ـ يخرب بيتك يا قمْطرة، تغرينني بك!! وتزيّنين هذا الإغراء؟ ماذا يقولون عنّي لو فعلتها؟

ـ فحل!

ـ أنا، في هذا العمر، فحل؟

ـ وكيف ستركب رئيفة إذا لم تكن فحلاً.

عبس الحكيم، شعر بأنّه تراخى مع قمْطرة، وأنّ قمْطرة تمادت عليه، لم تعد تحسب حساب مقامه، وسنّه، وحكمته، ومكانته بين الصيّادين، وسمعته في هذه الغابة . . إنّها إبليس، ومثل إبليس انسلّت إلى دماغه، بل كادت تلعب بدماغه، تغريه بأن يتذوّق اللّون الغجري، ولو أرخى الحبل لها أكثر، تمادت أكثر، رجعت إلى ما كانت عليه في المحكمة، حيث المحكمة عندها مسرح، لمجرّد أنّ الأرقش قال إنّنا في مسرح . . أعوذ بالله من النساء، ومن نسل حوّاء كلّه.

قال صارمًا:

ـ كان الأرقش في الغابة، وأنت ذهبت إليه حيث كان في الغابة، فماذا قال لك قبل أن يثور، ويغلي كالمرجل؟

ـ وماذا في وسعه أن يقول!؟ أنا قمْطرة، ومن يمسّ قمْطرة يمسّ الأرقش وبالعكس!

ـ أنا لا أسأل عن المسّ وعدم المسّ، أسأل: هل كان يفكّر؟ وبماذا؟ وما موقفه منّي؟

ـ ليس له موقف منك.. ولا أدري بماذا كان يفكّر، لكنّه كان حزينًا، صامتًا، يدبّر لأمر ما.. والله أعلم ما هو هذا الأمر.. ظنّي أنّه يريد خوض المعركة الأخيرة بمفرده، ويأخذ كل ما ينتج عنها لحسابه الخاصّ..

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ بالفراسة.. الغجر مشهورون بالتنجيم، وقد فرشت الودع، وتأمّلتها جيّدًا، فاستنتجت أنّ الأرقش مقبل على أمر خطير، وأنّ دمًا سيجري، لكنّني لا أعرف دم مَنْ، دم الأرقش، أم دم أعدائه.. إنّني أمزح معه عادة، لكنّه كان في حال لا يجوز معها المزاح.. وقد علمت أنّ دندنة، هذه الأفعى الرقطاء، سبقتني إليه، دون أن تحسب حساب القال والقيل، دون أن تبالي بسمعتها، كامرأة تذهب إليه في الغابة، وفي ظلام اللّيل.. الأرقش، كما أعرف، لا يرتاح لرؤية دندنة، وكان في المحكمة على خصام معها، فذهبت إليه تسترضيه.. تقول له إنّها لا تكره رئيفة!

ـ وهل رضي؟

ـ ماذا تقدّر أنت؟

ـ الأرقش عنيد، لا يرضى بسهولة، لا يتأثّر بالأنوثة.. إنّه في وادٍ آخر.. وأنا أعرفه.

ـ أرجوك يا حكيم، لا تقل أنا أعرفه، الله وحده يعرف الأرقش، وإلاّ بماذا تفسّر إطلاقه سراح هذه العائبة، الخائنة، فدوى؟ هذه كانت على قائمة الخونة، وبعد أن استمع إلى ما جرى، تَعْرِفْ ماذا قال لها؟ قال لها: نافع الداري في قبضتنا، وحسابنا معه.. اذهبي أنت طليقة، حرّة.. وكأنّه لم يسمع أنّ فدوى حاولت طعن دندنة بخنجر، محرّز عليه الآن.

فكّر الحكيم بأناة كعادته، وكعادته برّر فعلة الأرقش، قال في نفسه: «إطلاق سراح فدوى، بعد أن ضبطت بالجرم المشهود، له سبب، وهذا ما سوف نعرفه، لكنّه حذّرها قائلاً: «إنّنا نستطيع أن نطالك، ولو كنت في طبقات السحاب» فكيف سيطالها إذا هربت؟ ولماذا قال لها: «في وسعك أن تبقي معنا، أو تغادرينا إلى حيث تشائين»؟ صدقت قمْطرة، الله وحده يعرف الأرقش.. لكن من يعرف قمْطرة، سوى الله وحده تعالى؟ قمْطرة تكذب. الأرقش سأل عنّي، لا بدّ أن يكون قد سأل عنّي، وعن رئيفة، رغم كلّ ما حقدت عليه بسبب رئيفة، وما وسوس لي إبليس من وساوس خبيثة.. الأرقش لا يحمل الحقد على من هم معه.

رفرفت الهداهد فوق الحكيم على شجرة الصنوبر.. صاء أحدها:

إنّ الذي بيني وبين بني أبي وبيني وبين بني عمّي لمختلف جدّا

صاء آخر:

فإن أكلوا لحمي وفّرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وصاء ثالث:

ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس كبير القوم من يحمل الحقدا

فقال الحكيم بشير وهو ينهض ليعود إلى خيمة رئيفة:

ـ صدق المقنّع الكندي.. والله!

ـ ١٢ ـ

كانت رئيفة تنام، تستغرق في النوم، فجلس الحكيم قبالتها يتأمّلها وهي نائمة، ولم يكن نومها، والاستغراق فيه، ليقلقه كما يوم أمس، فراح يتأمّلها، دون أن يمسّها، بوجهها الشاحب وشعرها الخرنوبيّ، وعينيها الجميلتين، وأنفها الدقيق المرفوعة فتحتاه إلى أعلى قليلاً، وجسمها الممشوق الذي هزل بفعل الخوف والمرض، اللذين تراجعا الآن، وبدأت صحّتها تتحسّن، وشهيّتها تعود شيئًا فشيئًا. . وعدا الحليب، صار بإمكانها أن تتناول اللحم وبعض الخضار المسلوقة.

خرج الحكيم بشير من الخيمة، سمع إطلاق نار على دفعتين، عادت السكينة إلى الغابة بعدهما. لم تكن على صخرة النبع سوى فدوى، التي تبكي لا يدري لأيّ سبب، خائفة، تغطّي عينيها بكفّيها، وهي مطرقة الرّأس، ومن كلّ كيانها ينبعث سؤال صامت: «لماذا؟ لماذا؟»، وندم يلوح، لأنّها راحت، كانت هناك، ورأت، لأوّل مرّة في حياتها، كيف يكون الإعدام رميًا بالرصاص، والرّعب الجهنّمي الذي انتاب الشادوف، عميل القلاع، المتنكّر بثياب الصيّادين، الخائن لهم، وصياح دغمش، وهو يقاد إلى الإعدام: «أريد الحكيم بشير، دعوني أره، فهو

يعرف من أنا، من أين جئت، وكم طاردت الذئب الأسود معه»، لكن أحدًا لم يستجب له، وحين طلب أن يرى رئيفة قيل له إنّها مريضة، فاكتفى بتدخين سيكارة، وعُصبت عيناه، ثمّ أعدم!

جلس الحكيم إلى جانب فدوى، راغبًا في أن يعرف سبب بكائها، وإذا كانت خائفة، فما مبعث خوفها، وماذا جرى في المحكمة؟ ولماذا البكاء الذي لا يفيد؟ وهل هو احتجاج على الإعدام؟ ولماذا الاحتجاج إذا كان هذا هو حكم المحكمة؟ وماذا يفيد إذا كان الإعدام قد تم؟ ولماذا لم تذهب، بعد إطلاق سراحها؟ وهل بقاؤها لمعرفة ماذا سيحلّ بنافع الداري حبيبها؟

قالت فدوى: نافع الداري ليس حبيبي، أو زوجي، إنّه زميلي، وكنّا معًا لمدّة طويلة، وهو متّهم بالخيانة، وأنا خائفة عليه من الإعدام!

قال الحكيم بشير بوقاره وهدوئه المعتادين:

ـ وما رأيك أنت به: خائن أم غير خائن؟

ـ هذا ما سأقوله في المحكمة.. وأطلب مساعدتك يا حكيم.

ـ كيف أساعدك، إذا كنت لا أعرف ما ستقولينه في المحكمة؟

ـ هل هذا استجواب؟

ـ وهل أحقّق أنا معك؟

ـ وماذا ينفع القول إذا كان سيصل إلى الأرقش؟

ـ أعدك أن يبقى سرًّا بيننا؟

ـ أنت، يا حكيم، رجل طيّب، رحيم، وهذا ما هو مشهور عنك.. لكنّ الأمر ليس بيدك..

ـ كيف الأمر ليس بيدي؟ الأرقش صديقي، لكنّني صديق الحقيقة بقدر أكبر: هل نافع الداري، والكلام بيننا، ارتكب خيانة ما؟ وما هي؟ وكيف ستبرّرين خيانته إذا كان قد خان؟ الخيانة، يا فدوى، لا تبرّر ولا يُدافع عنها.. أنصحك أن تقولي ما تعرفين عنه بصدق، وهذا ينفعك وينفعه معًا.

ـ لن ينفعني كلامي بأيّ حال، لأنّني، أنا نفسي خنت الأرقش!

ـ الأرقش أم قضيّة الأرقش؟

ـ الأرقش شخصيًّا، ومع نافع الداري!

ـ خيانة الأرقش في الحبّ، لا تقدّم لديه ولا تؤخّر.. القضيّة هي المهمّة لنا جميعًا.. هل كنت تحبّين الأرقش؟

ـ الله يعرف!

ـ وبعد الله، هل الأرقش يعرف؟ هذا هو المهمّ.

ـ وهذا المهمّ لا يستطيع أحد أن يعرفه.. الأرقش رجل غامض!

ـ الأرقش صريح ومستقيم عند اللزوم، هل تعرفينه شخصيًا؟

ـ لا!

ـ وكيف صار الحبّ بينكما إذن؟

ـ أرسلت له رسالة.

ـ ومن أدراك أنّها وصلت؟ وهل يكون الحبّ برسالة؟ أنت تعرفينه شخصيًا، فلماذا تتكتّمين؟ وإذا كنت تعرفينه، هل فاتحته بحبّك؟ وماذا كان جوابه؟ وهل دامت المعرفة بينكما طويلاً؟ كوني صريحة، فليس في الحبّ عيب!

ـ وفي الجنس؟

ـ مارس الجنس معك؟

ـ لا! لذلك انتقمت.. مارسته، نكاية، مع نافع الداري.. وهذا هو نافع الداري!

«إنّها تكذب، قال الحكيم في ذاته، الأرقش واضح، وإذا كان غامضًا، في هذا الموقف أو ذاك، فإنّ لغموضه دافعًا ما، وهو يعرف فدوى هذه، لكنّها معرفة عابرة، لم يمسسها خلالها.. هي التي اخترعت قصّة الحبّ هذه، وهي التي تبدو شبقة، مارست الجنس مع نافع الداري، بذريعة النكاية، وليس من نكاية، والأرقش، كما أعرفه، لا يعير هذه المسائل أدنى اهتمام، ونافع الداري غير متهم بسبب علاقة جنس، وإنّما بسبب علاقة خيانة، وفدوى هذه شريكته في خيانته، لهذا قال لها: «نافع الداري بين

أيدينا، وهذا يكفي، اذهبي أنت طليقة السراح». . وخوفها اليوم، وحتى بكاؤها، سببهما ليس حضور عمليّة الإعدام، بل خشيتها من إعدام نافع بتهمة الخيانة، وشراكتها فيها، هي أيضًا!»

مغاور السمندي، محامي الدفاع، روى للحكيم كلّ ما جرى في المحكمة، وكيف اتخذت قرار إعدام الشادوف ودغمش، مع التنفيذ الفوري الذي حضره بالذّات، مع جمع غفير من الصيّادين والصيّادات.

قال مغاور: منذ تولّى الأرقش مهمّة الادّعاء، شعرت أنّ الجدّيّة والحزم سيكونان طابع المحاكمة، فقد ادّعت دندنة أنّ رصاصة طائشة أصابتها في رجلها، وهي غير قادرة، بسبب الجرح أن تتابع مهمّتها كوكيلة للإدّعاء، إلاّ أنّ حجّتها لم تقنع أحدًا، وعرف، فيما بعد، أنّها هي مَن أطلقت الرصاصة، التي أحدثت جرحًا طفيفًا، لم يصل إلى العظم، حتى لا تتحمّل مسؤوليّة المطالبة بالإعدام، للخائنين الشادوف ودغمش، فاضطر الأرقش أن يتولّى الادّعاء، ويحسم القضيّة في جلسة واحدة.

قال الحكيم بشير:

ـ حسنًا فعل الأرقش، لأنّه، بسطوته، وبما قاله ليلة أمس، وبالمعلومات التي بين يديه، كان متوقّعًا ألاّ تحدث مشاغبات، وأن تتوافر الأدلّة الجرميّة التي على أساسها يصدر الحكم دون إبطاء. ويبدو أنّ الأرقش، الذي استند إلى اعترافات الشادوف ودغمش، لم يكن بحاجة إلى شهادتي. . أو جنّبني أداء الشهادة،

كي أبقى إلى جانب رئيفة المريضة. .

قال مغاور:

ـ يبدو أنّ الخائنين كانا يعرفان مصيرهما، لذلك لم يطعنا بما قالا في التحقيق، ولم يدّعيا التعذيب، كما هي عادة المتّهمين، وظنّي أنّهما لم يتوقّعا حكم الإعدام، لأنّه لم يكن هناك جريمة قتل، بل جريمة محاولة قتل فقط، وقد استندت في دفاعي على هذه النقطة، إنّما كان هناك جرم خيانة، كشف عنه الادّعاء كشفًا كاملاً، وأيّدته شهادات الشهود، وحتى شهادة نافع الداري، الذي أكّد أنّه قبض مالاً من الشادوف، وقدّم ما تبقّى معه من هذا المال إلى المحكمة!

قال الحكيم بشير للمحامي مغاور السمندي:

ـ اجتمعت، هذا الصباح، مع فدوى التي كانت تبكي، خوفًا من الانتقام، لأنّها خانته جسديًّا مع نافع الداري. .

ـ خانت مَن؟

ـ الأرقش!

ـ وهل كانت هناك علاقة بين الأرقش وفدوى؟

ـ هذا ما توهّمتْه المسكينة، فقلت لها: حتى لو كانت هناك علاقة جنسيّة مفترضة، فإنّ الأرقش لا يتوقّف عندها، لأنّه أذكى من هذا، ولأنّ ما يهمّه القضيّة وحدها.

ـ هذا صحيح، وظنّي أنّه ستكون هناك مفاجآت. . فقد بدا الأرقش، كوكيل ادّعاء، على قدر جيّد من النباهة، حين اكتفى بقرار الإحالة وسأل الشادوف:

ـ من أعطاك هذا المال الذي وجد معك؟

ـ سامر المندي صاحب القلعة. .

ـ وماذا في هذه القلعة؟

ـ كنوز من الأموال والتحف والمجوهرات والأسلحة و. .

قاطعه الأرقش:

ـ لا تتعب في تعداد كنوز هذه القلعة أو غيرها. . نحن نعرفها، والشعب يعرفها، ويعرف من أين أتت، وكيف جمعت. . المهمّ لدينا هو التالي: هل كنت عميلاً لسامر المندي، صاحب القلعة؟ ومنذ متى؟ وماذا طلب منك القيام به؟ وبماذا زوّدك من مال وسلاح؟ فاعترف الشادوف أنّ سامر المندي طلب منه، العمل في الخفاء على تأمين المتعاونين من الصيّادين، وأنّه توصّل إلى تجنيد بعض هؤلاء الصيّادين، عن طريق شرائهم بالمال، وأنّه، أي سامر المندي، أعطاه سلاحًا جديدًا حديثًا، هو هذا السلاح المصادر، وأعطاه مبلغًا كبيرًا من المال لشراء دغمش، مقابل أن يتعاون معه على قتل الأرقش، وأنّهما حاولا قتله مرّتين ولم ينجحا، إلى أن أصابه الشادوف برصاص قمْطرة في كتفه، واستسلامه، وهرب دغمش. . وقد أيّد دغمش، ونافع الداري،

وقمْطرة، وصقرش كلّ هذه الوقائع.. وطلب الشادوف ودغمش الرأفة بهما، وتخفيف الحكم عنهما لتعاونهما في التحقيق، وتأكيد اعترافهما أمام المحكمة.. فوقف الأرقش، وفنّد الوقائع، مركّزًا على الخيانة، طالبًا إنزال عقوبة الإعدام رميًا بالرصاص على الخائنين الشادوف ودغمش، وبعد اختلاء هيئة المحكمة، أصدرت قرار الإعدام الذي نفّذ فورًا، كما رأت فدوى بعينيها، وحدّثتك عمّا رأت!

أطرق الحكيم برأسه، ساندًا إيّاه بكفّيه، وقبل أن يذهب المحامي مغاور السمندي سأله:

ـ ماذا تقدّر، هل هناك إعدامات أخرى؟

ـ إعدام واحد بحقّ سامر السمندي، صاحب القلعة، الذي حرّض على فعل الخيانة، وأوعز بالقتل، وقدّم المال والسلاح.. المحكمة ستعود إلى الانعقاد بعد قليل، ألن تحضرها يا حكيم؟

ـ سأحضرها بالطبع، ولكن بعد أن أتفقّد رئيفة المستغرقة في النوم!

تفقّد الحكيم رئيفة، كانت فعلاً مستغرقة في النوم، وحسب الحكيم ياسر فإنّ النوم، مع الدواء، أو بفعل منه، هو الذي سيشفيها، وستعود معافاة كما كانت، إلاّ أنّ الحكيم الذي شكّ في الأرقش، كان على شعور بالذنب، وفي سريرته يتعذّب، لا من هذا الشعور وحده، بل من الودّ الحميم الذي كان بينه وبين الأرقش وزال، ومن الصعب، إذا لم يكن من المستحيل، أن

يعود ثانية. . لذلك عندما ذهب إلى المحكمة مع المحامي مغاور، وبعد الذي سمعه عن الأرقش، الذي يلعب بكلّ رصيده دفعة واحدة، كان الحكيم متوجّسًا، يرغب، ولا يرغب، أن يكون شاهد إثبات. فالشهادة، كما يبدو، غير مطلوبة، والأرقش بالذّات، هو من لا يرغب فيها، لا لأنّ بينهما رئيفة، التي أحبّت الأرقش حبًّا صافيًا، صادقًا، مخلصًا، فلم يستجب لحبّها، وإنّما لأنّ الحكيم خانته حكمته في التعامل مع صديقه بأمانة.

الأرقش، من جانبه، كان خالي الذهن من وساوس الحكيم بشير، فالحبّ، في الستّين من العمر، غيره في المراهقة والشباب. إنّه، مع التقدّم في العمر، يكون أرسخ، والأرقش الذي يعرف هذا، كان يعذر الحكيم إذا لازم خيمة رئيفة، ولشدّ ما قال في نفسه: «ليهنأ الحكيم في حبّه، فقد كافح طويلاً، وآن له أن يستقرّ، أن يعيش براحة، بعد أن قام بواجبه قيامًا لم تشبْه شائبة. . وهو، الحكيم، قد ترك لي أن أعالج الأمور، لثقته فيّ، وآمل أن أبرّر هذه الثقة، دون أن أنسى لحظة واحدة، أنّني بحاجة إليه، وأنّ حكمته ضروريّة لكبح اندفاعي، عندما أندفع والغضب يسيطر عليّ، ويتحكّم، ولو قليلاً، في تصرّفاتي. . إنّهم يروّجون الشائعات عنّي، يزعمون أنّني أقامر بكلّ رصيدي، وربّما كان هذا صحيحًا، لأنّ المرء لا يحسن معرفة نفسه من الداخل، كما يحسنها من يراقبونه من الخارج».

وصول الحكيم بشير، مع المحامي مغاور السمندي، إلى باحة المحكمة قبل انعقادها، صنع بهجة للأرقش. . بادر، مسرعًا،

لاستقباله، قائلاً للمحامي مغاور:

ـ مهمّتك، اليوم، ستكون صعبة جدًّا، لهذا عليك أن تراجع قرارات الإحالة ، لأنّني سأكون خصمًا لك، لا يعرف الرحمة.

قال مغاور:

ـ نحن، يا أرقش، من معدن واحد، لكنّني أستبعد الخصومة بيننا، كدفاع وادّعاء، لأنّه لا مجال لهذه الخصومة أصلاً. . وحتى لو لم أكن لبيبًا، يفهم من الإشارة، فإنّني ذاهب كي أدع لك فرصة الاختلاء بالحكيم بشير.

قال الأرقش بعد ذهاب المحامي مغاور السمندي:

ـ يا لهؤلاء الفتيان ما أروعهم! فقد نبتوا من الشعب، وتفانوا في الكفاح لأجل الشعب. . وغدًا أو بعده، سيعود كلّ منهم إلى بلده، ليعيش بين أهله، فمن كان منهم متزوّجًا وله أبناء، يعود إلى زوجته وأبنائه، ومَن كان عازبًا يعود إلى أبويه وأخواته، أو إلى حبيبته أو خطيبته، ويزاول كلّ منهم مهنته، ومَن ليس له مهنة يتدبّر أمره في عمل ما. «أهلنا والزهر، كلّهم قد كبروا» تغنّي فيروز، وهذا صحيح، الناس يكبرون، والزهر يكبر، والشجر يكبر، ونحن سنكبر أيضًا، وهذه سُنّة الحياة. . صباح تغنّي «يا غبنك يا ربيع العمر ولّيت»! ربيع العمر، يا حكيم ولّى، بعضنا مرّ عليه الصيف أيضًا.

قال الحكيم بشير:

ـ أنا صرت في خريف العمر، وماذا بعد الخريف؟ الشتاء وعندئذ تكون الشيخوخة، إلاّ أنّنا جميعًا، ومن كلّ الأعمار، سنتذكّر الغابات، والأيّام التي قضيناها في الغابات، بحلوها ومرّها.. ترى ماذا كانت النتيجة؟

قال الأرقش:

ـ هذا ما كنت أريد أن أسألك عنه.

ابتسم الحكيم وقال:

ـ أعدمنا خائنين، لكنّنا لم نعدم الخيانة ذاتها. هذه ستبقى، ومن هنا الحسرة.

ـ ولماذا الحسرة؟ الخيانة ستبقى، والأمانة ستبقى، وسيستمرّ الصراع بينهما إلى الأبد، فلماذا الحسرة.. أنت علّمتنا أنّ قضايا الكون أبقى من قضايا الناس، وتعيس من يحسب أنّ كلّ شيء سيتحقّق على حياته. مثل هذا التفكير، وحده، يقود إلى الحسرة، وما عداه إلى المسرّة. تذكّر قولي إنّ حياتنا في الغابات، وفي المحاكمة، وفي الحبّ، والبغض، والهناءة، والتعب، وفي الصواب والخطأ، كلّها تمثيل في تمثيل، وأنّنا جميعًا نمثّل على مسرح؟ بالنسبة لي، ولك، وربّما للآخرين أيضًا، سنبقى نمثّل ما بقي مسرح، وعمر المسرح عمر الكون ذاته.. ما رأيك في الذي صار، وأنت غائب عنّا، بحكم الضرورة؟ السهر على رئيفة وهي مريضة، وعلى كل رئيفة مريضة، هو ضرورة، لكنّك، طول هذه المدّة، كنت معنا، كنت حكيمنا!

قال الحكيم بشير:

ـ كنت معكم، وكنت بعيدًا عنكم، وكنت، وهذا ما آسف عليه، سيّئ الظنّ ببعضكم، وبك أنت بالذات، فهل تسامحني؟ أعرف أنّك تسامحني دون أن أسألك السماح، وهذا ما لمسته من حفاوتك بي.. أمّا ما جرى في غيابي فإنّه شيء غير متوقّع، أو الأصحّ يدعو إلى الدهش، لماذا أطلقت سراح فدوى؟ ولماذا قلت لها في وسعك البقاء بيننا، أو الرحيل عنّا، أمّا نافع الداري فهو في قبضتنا؟ ولماذا ثورتك وتهديدك للذين يظنّون أنّ الأمور أفلتت من بين أيدينا؟ أنت غريب الأطوار يا أرقش، والله وحده يعلم ماذا يدور في رأسك!.. هيّا بدأت المحاكمة..

افتتح الرئيس أكرم الرمّاح الجلسة، أعطى الكلمة لوكيل الادّعاء، بعد أن مثل سامر المندي، صاحب القلعة أمام المحكمة.. سأله الأرقش:

ـ من أين لك، ولأمثالك من أصحاب القلاع والقصور والمزارع، هذه الثروات.. كن صريحًا وأجب باختصار.

قال سامر المندي:

ـ من عرق جباهنا!

ـ هذا جيّد، لكنّنا، نحن أيضًا نعرق، والشعب كلّه يعرق، وليس لدينا حتى ما نأكله، بماذا تفسّر هذا؟

ـ أنتم لستم أصحاب مناصب، ولم تكن لكم الرواتب التي

لنا!

ـ وماذا عن مئات آلاف أصحاب الوظائف، الذين كانوا يتقاضون رواتب مثلكم، وهم الآن على الحصير؟

ـ هذا لأنّهم كسالى!

ـ وأنتم كنتم من المجتهدين؟

ـ نعم!

ـ وبماذا اجتهدتم؟

ـ بالعمل!

ـ وهم أيضًا كانوا يعملون، وبأكثر، وأشقّ، ممّا كنتم تعملون؟ وقد اجتهدوا مثل اجتهادكم، حتى أضناهم الاجتهاد، فهزلوا، ومرضوا وماتوا، ولم يملك ذووهم ثمن قبر لهم، فدفنوا في مقابر الفقراء الجماعيّة. . ما قولك في هذا؟

ـ الدنيا حظوظ!

ـ وهل حظوظ الشعب الفقير، البائس، وحدها السيّئة، وحظوظكم أنتم الجيّدة؟

ـ لن أجيب على هذا السؤال!

ـ لا بأس! نقلب السؤال: حظّكم كان جيّدًا، وحظّ الشعب كان سيّئًا، فماذا بعد الحظّ الجيّد، والحظّ السيّئ؟

ـ حكمة ربّنا.

ـ سبحانه وتعالى! ولكن هذه صحفكم.. وهذه الصحف تقول إنّكم عثتم فسادًا، وإنّكم تعاطيتم الكسب غير المشروع، وإنّكم بكسبكم هذا نشرتم الفساد، الذي يستشري يومًا بعد يوم.. فماذا تقول؟

ـ أقول إنّها صحف كاذبة؟

ـ ومن اضطرها إلى الكذب؟

ـ اسألوا غيري عن هذا؟

ـ تقصد المسؤولين عن الإعلام؟

ـ أنا لا أقصد أحدًا!

ـ ألا تجد أنّ هناك تناقضًا في أقوالك؟ الإعلام بيدكم، فكيف كان ضدّكم؟

ـ مصادفة!

ـ كم كان راتبك؟

ـ الراتب الذي تدفعه الدولة.

ـ وسقفه معروف أم مجهول؟

ـ معروف!

ـ ومن راتبك بنيت هذه القلعة، وأنشأت هذه المزرعة،

ودفعت ثمن التحف الغالية، وخزنت هذه الأموال الطائلة!؟ وما هو رصيدك بالدولار، أو العملة الصعبة، في البنوك التي خارج الحدود؟

ـ إلى أين تريد أن تصل؟

ـ إلى أنّك لصّ، وأنّك نهبت الشعب، وأشعت الفساد، أنت وأمثالك، وسلختم جلود أبناء الشعب بلطف، وبشفرة ماركة «ناسيت» أو ماركة أحدث «كروما» وغيرهما، وأنّ الصيّادين الذين خرجوا لمطاردة الذئب الأسود، الذي هو الفساد، في الغابات الاثنتين والعشرين، لم يعثروا إلاّ على ذئب واحد هو أنت.. وأنت تستحقّ الإعدام، جزاء ما اقترفت يداك، لكن ما الفائدة من إعدام ذئب أسود واحد هو أنت، والذئاب الأخرى السود لا عدد لها ولا حصر؟ وهي تسرح وتمرح في الغابات، وتتمختر على هواها في شوارع العواصم والمدن!

المحكمة الموقّرة، الادّعاء يكتفي بهذا القدر من الأسئلة، وتطلب للسيّد سامر المندي الماثل أمامكم، لا البراءة، بل إطلاق السراح.

محامي الدفاع مغاور السمندي:

ـ إنّني، أوافق على ما قاله وكيل الإدّعاء، لأنّه، في رأيي، كرجل قانون، لا فائدة من إعدام ذئب أسود، أو سجنه، مادامت هناك قطعان من الذئاب السود!

تشاور رئيس المحكمة مع مستشاريه، وبعد المداولة خرجت هيئة المحكمة لتعلن القرار التالي:

باسم الشعب، وبالإجماع، تقرّر المحكمة ما يلي:

أوّلاً ـ إطلاق سراح المدعو سامر المندي.

ثانيًا ـ تُلي القرار وأفهم علنًا.

طلب الأرقش، وكيل الادعاء، الكلمة الأخيرة، فوافقت المحكمة.. وعندئذ نهض وقال:

ـ أيّها الزملاء الأعزّاء، أيّها الصيّادون والصيّادات، أيّها الحاضرون جميعًا، أيّها الأحبّاء الذين بهم «تسر النفس في البرح العصيب» انتهت المسرحيّة، لكنّ الكفاح لم ينته. لقد أدّيتم أدواركم بشكل رائع، تشكرون عليه، لكنّنا لسنا عصابة، حتى ونحن نحمل السلاح في هذه الغابات! وكان القصد من مسرحيّتنا أن نكشف المستور، أن نفضح العورات، وبكلمة: أن نطرح القضايا طرحًا صحيحًا، وهذا ما فعلناه.. ولأنّه ليس من سجون لدينا ولا معتقلات، فإنّني ألتمس من المحكمة الكريمة، أن تصدر قرارها بإطلاق سراح جميع الموقوفين، من رجال ونساء، وأن تدعوهم إلى مغادرة الغابات إلى بيوتهم، أو أماكن سكنهم، كي يزاولوا أعمالهم المعتادة، أو يبحثوا عن أعمال برغم البطالة المستشرية، وحظّهم في الحصول على عمل مشكوك فيه.. وسأكون، غدًا صباحًا عند النبع، كي أودّعكم فردًا فردًا، وأشكركم جميعًا على كفاحكم الجيّد.

وفي ضحى الغد بدأ الوداع، وتفرّق الجمع، وعانق الأرقش الحكيم بشير طويلاً، وودّع رئيفة التي أُركبت على فرس. . وحوالى المغيب كان الجميع قد غادروا، وبقي الأرقش وحيدًا، جالسًا على صخرة النبع. ومن بعيد، من أعماق الغابة، تعالى رنين ناقوس دير، وهدهد يصلّي بصوت رخيم:

اسجدي لله يا نفس فقد وافى المغيب

واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب!

وبكى الأرقش، لأوّل مرّة في حياته، لأنّه قرّر أن يبقى وحيدًا في الغابة، إلاّ أنّ قمْطرة ظهرت فجأة، فاحتضنته، وراحت تبكي معه ذكريات الأيّام الغابرة!

انتهت

ليلة ٣ تموز ٢٠٠٣